سلسلة
روايات علمية

مسرح الجريمة

2

د. نبيل فاروق

إغتيال

FAYROUZ2006
www.dvd4arab.com

مسرح الجريمة

(نهير سالم).... طبيبة شرعية، وباحثة، وعالمة متخصصة، فى عصر جديد...

عصر تطوّر فيه كل شئ....

حتى الجريمة...

ولأن ميزان الحياة يحتم وجود رد فعل، لكل فعل، مساو له فى القوة، وضاد له فى الاتجاه، كان من الضرورى أن يتواجد مثلها...

ولكى تكشف الغموض، وتواجه أعقد الألغاز، كان من المحتم أن تلتقط بعينيها الفاحصتين، وعلومها العصرية، وحاستها العلمية الخاصة، كل لمحة، من ذلك المسرح الكبير...

مسرح الحياة..

ومسرح الجريمة.

د. نبيل فاروق

مسرح
الجريمة

المعتقل

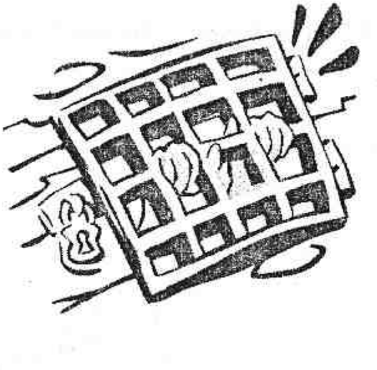

1

المعتقل

لم يبدأ ذلك اليوم بطريقة عادية بالتأكيد؛ فعلى الرغم من أن الدكتورة (نهير) ظلَّت تعمل لساعة متأخرة من اليوم السابق، إلا أنها استيقظت مضطرة، قبل أن تشير عقارب الساعة إلى السابعة صباحًا، على صوت شديد الارتفاع، يذيع آيات المصحف الشريف، عبر كاسيت سيارة، عرفت فيها على الفور أنها سيارة أحد جيرانها، وعندما صرخت فى سائقه، تطلبه بخفض الصوت قليلاً، زمجر فى غضب، وأخبرها فى لهجة بين التهديد والوعيد، أن هذا قرآن كريم، فكيف تطالبه بخفض صوته، وعبثًا حاولت (نهير) إقناعه بأن عظمة القرآن،

توجب ألا نجعل منه وسيلة لإيقاظ المرضى والعجزة، والمرهقين، وأولئك الذين يعملون ليلاً، وينشدون قليلاً من النوم فى الصباح، وحاولت أن تشرح له كيف أنه من المستحيل أن يحصل على الثواب، عندما يوقظ كل هؤلاء، بهذا الصوت المرتفع، ولكن الرجل رفض منطقها فى عناء، وأصرّ على أن الثواب كل الثواب فى إذاعة القرآن الكريم بصوت مرتفع، حتى ولو أيقظ هذا كل مرضى الدنيا..

وهنا، انتقلت (نهير) من حديث المنطق والعقل، إلى الأسلوب الذى يمكن أن يستوعبه مثله، من أصحاب العقول الصغيرة، والتعصبات غير المنطقية، فأخبرته أنها تعمل فى رياسة الجمهورية، وأنها ستستدعى الشرطة لإيقافه عند حده..

وعندئذ فقط، خفض الرجل صوت الكاسيت، حتى صار هو نفسه يسمعه بالكاد.. وحاولت (نهير) أن تعود

للنوم قليلاً، إلا أنها عجزت عن هذا، فنهضت، على الرغم من الصداع الشديد، الذى تشعر به، وارتدت ثيابها، وخرجت إلى عملها..

وعندما شاهدها السائق تخرج من البناية، هبَّ واقفًا، ورفع يده إلى رأسه، بتحية قوية، وكأنما يؤكِّد ولاءه، فاكتفت هى بإيماءة رأس، واستقلَّت سيارتها وهى تتثاءب، وانطلقت إلى مقر عملها..

وعلى الرغم من أنها قد وصلت مبكرة، إلى حد كبير، إلا أنها فوجئت بمساعدها (عزت) يستقبلها فى توتر شديد، وهو يسألها فى عصبية:

- أين كنت يا دكتورة؟!.. إنهم يحاولون الاتصال بك، منذ أكثر من ساعة!

ألقت (نهير) نظرة على ساعتها؛ لتتأكَّد من أنها لم تبلغ الثامنة بعد، قبل أن تقول فى قلق:

- الواقع أننى عدت منهكة أمس، فأغلقت الهاتف الجوَّال، ورفعت سمَّاعة هاتف المنزل، و..

قاطعها فى انفعال:

- إنـهم يريدوننـا أن نذهب إلى هنـاك فورًا.

سألته فى قلق:

- إلى أين؟!

خفض صوته، إلى ما يشبه الهمس، وهو يجيب:

- إلى المعتقل.. معتقل الوادى.

اتسعت عيناها فى دهشة، وهى تهتف:

- المعتقل؟!.. فى هذه الساعة المبكِّرة؟!

شحب وجهه، وامتقع بشدة، وهو يقول:

- عندما أبلغونى بالأمر، لم أحسن فهم الموضوع، وكاد قلبى يتوقَّف، من شدة الخوف.

سألتـــــه:

- الخوف من ماذا؟!

أجابها مرتجفًا:

- من مجرَّد ذكر اسم المعتقل.. لقد تصوَّرت للحظة أنـهم سيرسلوننا إلى هناك كـــ.. كمعتقلين.

هتفـــت مستنكـــرة:

- معتقلين؟!.. ولماذا؟!.. إننا لم نفعل ما يستوجب هذا!.. ثم أن الاعتقال غير قانونى.

أجابها، وصوته ينخفض أكثر:

- بالضبط.. إنه غير قانونى؛ لذا فهو لا يحتاج إلى أسباب أو مبرِّرات.. فقط أنك معادية للدولة، من وجهة نظر بعضهم، وهذا أمر مطاط للغاية، فقد يرون معاداة الدولة، فى رأى حر قلته، أو فى مقال كتبه صحفى، أو فى مفهوم دينى يخالف المفهوم الرسمى.

سألته مندهشة:

- وهل يوجد مفهوم رسمى للدين؟!

هزَّ رأسه فى قوة، قائلاً:

- فى بلدنا يوجد مفهوم رسمى لكل شئ.. حتى أفكارك ومعتقداتك، لابد وأن تتوافق مع ما يراه الرسميون فى الدولة، وإلا اعتبروك معادية لنظام الحكم.

كانت عاجزة عن تصديق هذا، فقالت منزعجة:

- لست أظن الأمور بهذا السوء.

هتف هامسًا:

- بل هى أسوأ من هذا بكثير.. وسترين بنفسك، عندما نذهب إلى ذلك المعتقل.. سترين الآلاف، الذين تم احتجازهم خلف أسواره.. سترين أنهم من كافة المشارب والجبهات والاتجاهات، وكلهم يتفقون فى أمر واحد.. أن الدولة تعتبرهم أعداءها.

قالت فى حدة:

- وماذا عن القانون، وضرورة وجود اتهام رسمى، وتحريات، و...

قاطعها فى عصبية، وهو يتلفَّت حوله فى خوف:

- هل تصدقين كل هذا؟!.. عندما تعاديك الدولة، فلا قانون ولا عدالة تحميك.. إنهم يمتلكون كل القوة وكل السطوة، ويعانون من مشاكل نفسية لا حصر

لـها، بسبب إدراكهم لكراهية وبغض الشعب لـهم، مما يصنع منظورهم الخاص، الذين يطبقونـه بالقوة والجبروت والطغيان.

هزَّت رأسها، محاولة طرد هذه الصورة شديدة السواء من رأسها، ثم لم تجد أمامها سوى أن تقول، فى شئ من التوتر:

- فليكـــن.. دعنا لا نضيـــع الوقت إذن، فى مناقشة هـــذه الأمور البغيضـــة.. سنعد حقيبة أدواتنا، ولنذهب إلى ذلك المعتقل؛ لنرى ماذا يريدون منا هنـــاك.

غمغـــم:

- أتعشَّم ألا يريدوننا هناك على نحو دائم.

وعلى الرغم من توترها، وجدت نفسها تبتسم..

* * * * * * *

منذ اللحظة الأولى، لم تشعر (نهير) قط بالارتياح تجاه معتقل الوادى...

أسواره العالية، والمساحة الهائلة التى تحتلها وتدور حولها أسواره، جعلتها تسترجع كلمات (عزت)، وتتمثَّل الأعداد الهائلة من المعتقلين، خلف هذه الأسوار المخيفـــة..

أما (عزت) نفسه، فقد انكمش فى مقعده، على نحو يدعو للشفقة، وهما يعبران المدخل الرئيسى، فى سيارة (نهير)، وكأنما يخشى أن يدخل، فيمنعونه من الخروج، لسبب أو لآخر..

ولكن أحد الضباط كان فى انتظارهما، ولقد استقبلهما فى ترحاب، خفَّف قليلاً من توترهما، قبل أن يصبحهما إلى مكتب قائد المعتقل، الذى استقبلهما بدوره فى حرارة، ودعاهما للجلوس، قبل أن يقول، دون مقدمات:

- القيادة السياسية رشحتكما، للتحقيق فى موت واحد من المعتقلين هنا.

سألته (نهير) فى اهتمام:

- ولماذا تشغل القيادة السياسية نفسها بموت رجل، ألقته فى معتقل، دون توجيهه تهمة واضحة إليه؛ لمجرَّد أنها تختلف معه فى الرأى والفكر.

كان من الواضح أن كلماتها لم ترق لقائد المعتقل، الذى رمقها بنظرة حادة، قبل أن يقول فى صرامة:

- ربما لأن المعتقل له صبغة سياسية خاصة، فهو أحد قيادى الجماعة المحظورة.

سألته (نهير):

- أية جماعة محظورة؟!

ازدادت لهجته صرامة، وهو يكرِّر:

- تلك الجماعة المحظورة.

ابتسمت فى سخرية، قائلة:

- وما المحظور بالنسبة لها بالضبط؟!.. مجرَّد ذكر اسمها؟!

لم يرق له أسلوبها أبدًا، ولكنه أشاح بوجهه، وهو يقول فى عصبية:

- جماعة الإخوان المسلمين.

بدت ابتسامتها أكثر سخرية، وهى تقول:

- عجبًا!.. ذكر اسمها لم يكن بهذه الصعوبة إذن.

التفت إليها قائد المعتقل بحركة حادة، وقال:

- هل سنضيع وقتًا طويلاً، فى مناقشة هذه النقطة التافهة؟!

انكمش (عزت) فى مقعده مذعورًا، وحاول تخفيف الموقف، وهو يقول فى توتر مرتجف مستكين:

- الدكتورة (نهير) لم تقصد أن...

استوقفته (نهير) بنظرة صارمة، فازداد انكماشًا فى مقعده، وأطبق شفتيه فى هلع، فعادت (نهير) تلتفت إلى قائد المعسكر، قائلة:

- أنت على حق.. لن نضيع الوقت فى مناقشة أمر لا طائل من ورائه، تمامًا مثل أن يصدر حزبًا حاكمًا

قرارًا باعتبار أكثر الجبهات قبولاً فى الشارع، وأقواها فى مواجهته، جماعة محظورة، حتى يأمن على نفسه من منافستها، التى يدرك أنه لن يربحها أبدًا، فى ظل ديمقراطية حقيقية.

هتف قائد المعسكر فى غضب:

- كلماتك لا تروق لى.

أجابته فى صلابة وحزم:

- وكلماتك كذلك، ولكننا لسنا هنا لمناقشة أمور عقيمة.. هيا أخبرنا لماذا احتاج موت قيادى الجماعة الـــ.. المحظورة، إلى محققى مسرح الجريمة؟!

نهض قائد المعتقل من خلف مكتبه، وعقد كفيه خلف ظهره، وهو يسير فى فراغ الحجرة، قائلاً:

- المشكلة أن ذلك القيادى بالذات كان كثير التمرُّد والاعتراض، وكان يثير العديد من المتاعب والمشكلات مع ضباط المعتقل، وكثيرًا ما قدَّم الشكاوى ضدهم، وحتى مساء أمس، كان فى غاية

الصحة والحيوية والنشاط، وفى الثالثة صباحًا، شعر بآلام حادة، فصرخ زملاء زنزانته يطلبون طبيبًا، وعندما وصل الطبيب، فى الرابعة صباحًا، كان قد مات.

انعقد حاجباها، وهى تغمغم فى حنق:

- الطبيب استغرق ساعة كاملة للحضور؟!

تجاهل قائد المعتقل تعليقها، وهو يواصل حديثه:

- لقد فحصه طبيب السجن بالطبع، وقرَّر أن الوفاة طبيعية، ولا توجد أية شبهة جنائية، ولكن القيادة السياسية أصرَّت على ضرورة عرض الأمر عليكما، قبل إصدار تقرير نهائى.

غمغمت (نهير):

- ربما كان هذا أفضل.

مرة أخرى، تجاهل قائد المعتقل تعليقها، وقال وكأنه لم يسمعها:

- وأنا أميل بالطبع إلى نظرية الوفاة الطبيعية؛ لأننا هنا

نعامل المعتقلين معاملة حسنة، ولا نؤذيهم بأى حال من الأحوال.

ستعادت شفتا (نهير) تلك الابتسامة الساخرة، وهى تنهض قائلة:

- إذن فأنتم تقهرون أفكارهم، وتقاتلون مبادئهم ومعتقداتهم، وتحتجزون حريتهم خلف أسوار عالية، ولكنكم لا تؤذونهم، بأى حال من الأحوال.

رمقها قائد المعتقل بنظرة نارية، قبل أن يشيح بوجهه، ويقول فى غلظة:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تبدءا فحصكما للجثة فورًا.

شعر (عزت) بقشعريرة باردة، تكتنف جسده كله، وهو يسير مع (نهير) وقائد المكان، عبر المعتقل كله، وحاول جاهدًا أن يتفادى النظر إلى المعتقلين، وهو يعانى من رعب هائل، يسرى فى عروقه، حتى بلغ معهما أحد عنابر الاعتقال، ودخل ثلاثتهم زنزانة القيادى الصريع..

كانت الجثة راقدة إلى جوار الجدار، أسفل النافذة العالية ذات القضبان، ومغطاة ببطانية سميكة، على الرغم من حرارة الطقس، فتقدَّمت منها (نهير)، وكشفت الغطاء عنها..

وما أن وقعت عيناها على الجثمان، حتى أدركت أن صاحبه أحد الوجوه المألوفة، التى شاهدتها فى الصحف أكثر من مرة، وأدركت على الفور أيضًا، لماذا شعرت القيادة السياسية بالقلق لموته، وهى التى تبذل جهدًا جبارًا طوال الوقت؛ لتحسين صورتها أمام الغرب، والتظاهر بالديمقراطية، وحماية حقوق الإنسان..

وبأعصاب متماسكة، انحنت (نهير) على الجثة، وقالت لمساعدها:

- (عزت).. أعطنى أدوات الفحص.

ناولها (عزت) أدوات الفحص بأصابع مرتجفة، وبدأت هى فحصها للجثة، وقائد المعتقل مع ثلاثة من ضباطه، يراقبونها بمنتهى الدقة..

كانت الجثة خالية تمامًا، من أية آثار عنف أو مقاومة، باستثناء جرح صغير طولى، فى الفخذ الأيسر، أشارت إليه (نهير)، وهى تلتفت إلى قائد المعتقل، فأجاب مساعده الضابط (عمر) فى سرعة:

- إنها إصابة حديثة، بسبب مسمار بارز، فى المقعد المقابل لمكتب سيادة القائد.

غمغم القائد فى عصبية:

- كنت قد دعوته إلى مكتبى، لمناقشة أسلوبه العنيف، فى التعامل مع الضباط، وعندما جلس، أصابه المسمار بهذا الجرح، ولقد قمنا بتطهيره، وأعطيناه حقنة مضادة للتيتانوس.

تمتمت، ولهجتها تحمل لمحة من السخرية:

- من الواضح أن لديكم نظام طبى متقدِّم هنا.

أجابها القائد فى حدة:

- إننا نقدِّم للمعتقلين أفضل خدمة ممكنة.

قالت، وقد بدت سخريتها واضحة:

- ألم يتقدَّموا بالشكر بعد؟!

تجاهل القائد عبارتها فى ضيق، فى حين قال الضابط (رأفت)، فى لهجة متحدية:

- المفترض أن يفعلوا.

التفتت (نهير) إليه، فواجهها بنظرات حادة متحدية، جعلتها تهز رأسها، وتعود لمواصلة عملها، فسألها الضابط الثالث (حسن)، فى شئ من القلق:

- الوفاة عادية.. أليس كذلك؟!

غمغمت:

- لا يمكننى الجزم بعد.

ثم التفتت إلى (عزت)، مستطردة:

- أريد مصباحًا يدويًا.

ناولها المصباح فى سرعة وذعر، وهو يختلس النظر إلى قائد المعتقل وضباطه الثلاثة، فالتقطته منه

(نهير)، وجذبت جفنا الجثة، وأضاءت مصباحها اليدوى، نحو العين مباشرة، و..

ولم يرق لها ما رأته..

وفى اهتمام شديد، أعادت الفحص مرة، وثانية، وثالثة، على نحو أثار قلق قائد المعتقل وضباطه، قبل أن تقول لـــ(عزت):

- نحتاج إلى عينة دم للفحص.

أسرع (عزت) يحصل على العينة المطلوبة، فى حين تساءل قائد المعتقل، فى قلق شديد:

- هل تشكين فى شئ ما؟!

أجابته فى حسم:

- بوء بوء العين ليس طبيعيًا.

غمغم (رأفت)، بلهجته المتحدية:

- أمر طبيعى، فصاحبه مات.

التقطت نفسًا عميقًا، قبل أن تقول، فى ثقة وصرامة:

- تقصد قُتِلْ.

انتفض قائد المعتقل فى عنف، واتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يهتف:

- قُتِلْ؟!.. مستحيل!.. طبيب السجن أكَّد أن..

قاطعته فى صرامة:

- المفترض أن أفحص أوراق طبيبكم هذا؛ للتأكَّد من أنه طبيب حقيقى، لأن أى شخص يفحص هذه الجثة، لابد وأن يدرك أنها ليست وفاة طبيعية حتمًا.

اندفع (عمر)، يقول فى عصبية:

- مستحيل!.. لم يتعرَّض له أى شخص بالأذى.

أجابته فى قوة:

- لم أقل أنه قد تعرض للاعتداء أو العنف، ولكن هذا لا ينفى أنه لم يمت ميتة طبيعية.

سألها (حسن)، وهو يزدرد لعابه فى صعوبة، عبر حلقه الجاف:

- كيف مات إذن؟!

أجابته فى سرعة:

- بالســم.

تراجع قائد المعتقل، بحركة عصبية حادة، واتسعت عينا (حسن) عن آخرهما، فى حين عقد (رأفت) حاجبيه فى توتر، وهتف (عمر) مذعورًا:

- سم؟!.. أى سم هذا، وكيف وصل إلى جسده؟!

أجابته، وهى تنزع قفازى الفحص:

- هذا ما سيبينه تحليل عينة الدم.

تبادل الأربعة نظرة عصبية، لم تفت عليها، قبل أن يقول قائد المعسكر، فى توتر شديد:

- ولكن طبيب السجن أكَّد أن...

قاطعته فى صرامة:

- بدلاً من أن نضيّع الوقت فى مناقشة مؤهلات طبيبكم، نريد حجرة مناسبته، لإجراء الفحوص اللازمة.

سألها (رأفت)، بلهجته المستفزة:

- لدينا حجرة تناسب هذا، سأقودكما إليها، حتى يمكننا تسليم الجثة لـــ...

قاطعته فى صرامة:

- ليس بعـــد.

سألها (عمر) فى توتر:

- ولِمَ لا؟!

أجابته فى حزم:

- لأن نتيجة فحص عينة الدم، قد تحتِّم إعادة فحص الجثـــة.

قال قائد المعتقل فى عصبية:

- ولكن الطقس حار، وربما..

قاطعتـــه:

- اترك لنا تقدير مثل هذا الأمر.

بدا الغضب على وجه قائد المعتقل، وعقد حاجبيه على نحو مضحك، فى حين غمغم (حسن):

- فليكن.. الأفضل إذن أن تبدأوا عملكم على الفور.

قادهما (رأفت) و(حسن) إلى حجرة صغيرة، تحوى مكتبًا خشبيًا، ومقعد واحد، ولها نافذة، مزوَّدة بقضبان فولاذية سميكة، كمعظم نوافذ المعتقل، وعندما بدأت

(نهير) فى إخراج أدواتها، لاحظت أن (حسن) و(رأفت) ما زالا فى الحجرة، فالتفتت إليهما، قائلة فى صرامة:

- اتركونا وحدنا.

أجابها (رأفت)، بأسلوبه المستفز:

- كلا.. النظام هنا يقتضى..

قاطعته فى صرامة:

- اسمعنى جيدًا.. لست أدرى كم تبلغ سلطتك وسطوتك هنا، ولكننى منتدبة من قبل القيادة السياسية العليا، ولو أنك تصرّ على عنادك، فسأجرى اتصالاً واحدًا، وربما تجد نفسك مضطرًا بعده لممارسة سلطاتك، فى معتقل حلايب أو شلاتين.

احتقن وجه (رأفت) فى غضب، فى حين غمغم (حسن) فى عصبية:

- لا توجد معتقلات فى حلايب أو شلاتين.

التفتت إليه، قائلة فى لهجة، تشبه أسلوب (رأفت):

- ما رأيك بشرطة المرور إذن؟!

ازداد وجه (رأفت) احتقانًا، وقال فى حدة:

- سننتظر أمام الباب، ولن ننصرف، حتى تنتهيا من فحوصكما السخيفة.

أجابته، وصوتها يحمل رنة ساخرة:

- هذا أفضل.

غادر الضابطان الحجرة، وتلفّت (عزت) حوله، بحثًا عن مقعد آخر، قبل أن يقول، فى مزيج من العصبية والتوتر:

- لم يحاولوا حتى إحضار مقعد ثان.

ابتسمت، وهى تعدّ الميكروسكوب الصغير، لفحص عينة الدم:

- لا تجعل هذا يزعجك، فهم لم يعتادوا العمل على راحة أحد.. كل ما يعنيهم هو راحتهم، وسلطتهم، وسطوتهم.

همهم بكلمات غامضة، فناولته بعض الدم، المأخوذ من جثة القيادى المعتقل، قائلة:

- لا يوجد جهاز طرد مركزى هنا، استخدم الوسائل القديمة إذن، لفحص هذه العينة.

انهمك كلاهما فى عمله بضع لحظات، قبل أن يغمغم (عزت) فى توتر:

- هل تعلمين.. لو أعملنا عقلنا، فالأفضل أن نعلن أن الوفاة طبيعية تمامًا.

رفعت عينيها عن المجهر فى استنكار، والتفتت إليه غاضبة، ولكنه لم ينتبه إلى هذا، وهو يتابع بنفس التوتـــر:

- فالإعلان بأن قيادى من جماعة الإخوان المسلمين، قد لقى مصرعه قتلاً، فى قلب المعتقل، كفيل بإشعال نيران يصعب إخمادها.

سألته فى حدة:

- نيران من أى نوع؟!

أجابها فى عصبية:

- من كل الأنواع، التى يمكنك تخيلُها.. ستثور ثائرة الجماعة، وكل مؤيديها، وستصدر جمعيات حقوق

الإنسان بيانات نارية، ويديننا الغرب باعتبارنا دولة بوليسية ديكتاتورية، وربما يؤدى الأمر إلى فتنة طائفية فى النهاية.

قالت مستنكرة:

- كل هذ؛ لأننا سنعلن الحقيقة؟!

أجاب فى عصبية متزايدة:

- ليس كل ما يعرف يقال، وفى كثير من الأحيان، يكون من الأسلم أن يكتم المرء معارفه فى أعماقه؛ حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

قالت غاضبة:

- وماذا عن دم القتيل نفسه؟!.. ألا يستحق أن يعاقب قاتله، أيًا كانت هويته؟!.. بل ماذا عن ضمائرنا؟!.. هل ستقبل فكرة إهدار دمه، خشية أن تثير الحقيقة حفيظة البعض؟!

قال، وعصبيته تبلغ ذروتها:

- ليس البعض، ولكن الكل.. الدنيا كلها ستنقلب على رأسينا، وسيعتبراننا المسئولين عن كل ما سيحدث.

قالت فى دهشة مستنكرة:

- وما مسئوليتنا هنا؟!.. إننا نكشف الجريمة، ولم نرتكبهـــا؟!

قال، وشفتاه تحملان ابتسامة عصبية، تجمع بين السخرية والخوف:

- من تتصورين سيصبح كبش الفداء إذن؟!..

هتفـــت:

- وما الحاجة إلى كبش فداء.. إنها جريمة قتل، ولن يضير أحدًا الاعتراف بها، وتقديم القاتل للعدالة!!

أجابها فى حدة، على الرغم من أنها رئيسته:

- ومنذ متى كانت الحكومة تعترف بأخطائها.. هل سمعت فى حياتك كلها مسئولاً واحدًا، يقرّ بأن إدارته أو وزارته، ارتكبت خطأ ما؟!.. إننا نحيا فى بوتقة من أخطاء لا حصر لها، ولكننا لم نسمع هذا عن لسان رسمى قط.. كلما حدثت مصيبة، خرج علينا مسئول كبير، ليعلن أن كل شئ على ما يرام، وأنه لم

ترتكب أية أخطاء، وليس فى الإمكان أبدع مما كان.. وفى كل مرة، لابد وأن يدان موظف صغير، يمكن التضحية به، وينجو الكبار..

أشاحت بوجهها، وعادت تفحص عينة الدم، وهى تغمغـم:

- إنك تجعل الصورة قاتمة.

أجابها متوترا:

- وأنت لا ترينها بالسواد الحالك، الذى هى عليه بالفعـل.

غمغمت محنقة:

- لست أظنها إلى هذا الحد.

قال، وهو ينتزع عينة الدم، من جهاز الطرد المركزى اليدوى العتيق:

- أنت التى ترين الأمور دومًا بصورة وردية.

لم يتلقَ جوابًا من الدكتورة (نهير)، فالتفت إليها، قائـلاً:

- ألا تروق لك كلماتى؟!

مرة أخرى، لم تجب عبارته، وبدت شديدة الاهتمام بالفحص الذى تجريه، فاقترب منها، مغمغمًا فى عصبيـــة:

- دكتورة (نهير).. لم أقصد أن..

التفتت إليه (نهير)، وعلامات الدهشة تغمر وجهها، وغمغمت بصوت اختنق، من فرط الانفعال:

- لا يمكنك أن تصدِّق ما وجدته.

فما توصلت إليه فحوصها، كانت مفاجأة..

مفاجأة مذهلة.

* * * * * * *

2
الثعبـــان

- "سم ثعبـــان؟!.. مستحيل!.."..

امتقع وجه قائد المعتقل فى شدة، وهو يهتف بالعبارة، ونقل بصره بحركة حادة، من (نهير) إلى (عزت)، وكأنما ينشد لديه جوابًا آخر، فامتقع وجه (عزّت)، وبدا مذعورًا أكثر مما ينبغى، وهو يغمغم فى عصبيـــة:

- هذا ما أثبتته التحاليل والفحوص.

بدا الذعر على وجه الضابط (عمر)، وعقد (حسن) حاجبيه فى توتر، فى حين رمق (رأفت) (نهير) و(عزت) بنظرته المتحدية، التى امتزجت هذه المرة

بشئ من العصبية، فقالت (نهير) فى حزم، وبلهجة تنافسه تحديًا:

- لقد أجرينا فحوصنا واختباراتنا مرتين، وحصلنا على النتيجة نفسها فى كل مرة.. ذلك القيادى الإخوانى مات بسم ثعبان.

قال قائد المعتقل فى توتر، وكأنما يحاول البحث عن أى مخرج:

- إنها وفاة عرضية إذن!

صمتت (نهير) بضع لحظات، وهى تقلِّب بصرها بين وجهه، ووجوه الضباط الثلاثة، محاولة أن تقرأ مايدور، خلف ملامحهم، قبل أن تجيب:

- هذا يتوقَّف على إعادة فحص الجثة.

قال (رأفت) فى حدة:

- وما الذى تتوقعين العثور عليه بالضبط؟!.. اعتراف خطى من الثعبان نفسه؟!

ارتسمت ابتسامة ساخرة، على ركن شفتيها، وهى تجيب، بلهجة لم ترق لأحد منهم:

- ربما كان هذا ما أبحث عنه بالفعل.

لم يفهم أحدهم عبارتها، ولم تحاول هى توضيحها، ولاذت بالصمت والكتمان، وهى تعود مع الضابط (حسن)، ومع مساعدها (عزت) إلى زنزانة القيادى القتيل؛ لإعادة الفحص..

كانت الجثة قد بدأت فى مرحلة التيبس بالفعل، على الرغم من حرارة الطقس، ولكن (نهير) انهمكت فى فحص كل سنتيمتر منها، بمعاونة (عزت)، ولقد استغرق هذا وقتًا طويلاً للغاية، مما أثار توتر (حسن)، فسأل فى عصبية:

- لماذا تفحصينها بهذه الدقة، وكأنك لم تفعلى من قبـــل؟!

أجابته، دون أن تلتفت إليه:

- فى المرة السابقة، لم أكن أعلم ما الذى أبحث عنه بالضبط.

سألها، فى شئ من القلق:

- وفى هذه المرة؟!

التفتت إليه بابتسامة غامضة، وهى تجيب:

- أبحث عن التوقيع.

غمغم مندهشًا ومتوترًا، وحذرًا فى الوقت ذاته:

- توقيــع من؟!

أجابته، وهى تعاود فحص الجثة، بنفس الدقة:

- توقيع الثعبان.

بدت له عبارتها أكثر غموضًا واستفزازًا، فهمّ بقول شئ ما، لولا أن تناهى إلى مسامع ثلاثتهم، فى هذه اللحظة، صوت هرج ومرج شديدين، فى ساحة السجن، مما جعل (حسن) أكثر توترًا، ودفعه إلى سحب مسدسه، بحركة غريزية وقائية، و(عزت) يغمغم فى عصبية، وقد استعاد ذعره غير المبرّر:

- ماذا يحدث؟!.. أهو تمرّد أو ما شابهه؟!

حاولت (نهير) أن تتجاهــل ما يحدث حولها، وأن تصم أذنيها عن الهرج والمرج، وهى تكمل فحصها

للجثة، ولكن (رأفت) اندفع داخل الزنزانة، فى هذه اللحظة، وهو يقول، فى لهجة جمعت بين الانفعال والشماتـــة:

- انتهى الأمر.. لقد عثروا عليه فى ساحة المعتقل.

استدارت إليه (نهير)، متسائلة فى اهتمام:

- عثروا على ماذا؟!

بدت لهجته أكثر شماتة، وتألّقت عيناه، وهو يجيب:

- على الثعبان.. الثعبان الذى قتل ذلك القيادى.

وانعقد حاجبا (نهير) فى شدة ودهشة مستنكرة؛ فقد كان هذا يتعارض مع كل ما وقر فى ذهنها، وما أرشدتها إليه فحوصها الدقيقة، وما كوّنته فى أعماقها عن الأمـــر..

يتعارض تمامًا..

* * * * * * *

بدا قائد المعتقل شديد الارتياح، وهو يرفع ثعبانًا صريعًا بطرف عصا طويلة، قائلاً، بلهجة تشف فى وضوح، عما يعتمل فى أعماقه:

- ها هو ذا.. لقد عثر عليه إخوانى آخر، فى ساحة المعتقل.. إنه الدليل على أن الوفاة عرضية... لقد لدغه الثعبان فى زنزانته حتمًا..

تطلّعت (نهير) إلى الثعبان بضع لحظات،، فى تركيز شديد، قبل أن تغمغم:

- ربمـــا.

أجابها (رأفت)، بلهجته المتحدية:

- لا مجال هنا لكلمة ربما، يا متباهية العلم.. لقد أثبتت فحوصك أن ذلك القيادى، الذى ينتمى إلى الجماعة المحظورة، قد لقى مصرعه بسم ثعبان، وها هو ذا الثعبان، فماذا تريدين بعد هذا إذن؟!

واجهته بلهجة أكثر تحديًا:

- أريد نقل الجثة إلى الطبيب الشرعى؛ لإعادة فحصها، وتأكيد ما توصّلت إليه، وأريد تحريز هذا الثعبان،

الذى تم العثور عليه، فى ساحة المعتقل، وسآخذه مع باقى الأدلة، وعينة الدم، إلى معاملنا الخاصة، المزوَّدة بأجهزة أكثر حداثة؛ لإعادة كل الفحوص والتحاليل، وإجراء المزيد منها، قبل أن أكتب تقريرى النهائى.

حدَّق قائد المعتقل فيها لحظة، قبل أن يقول فى عصبيـــة:

- هل اعتدت دومًا المكابرة، وعدم الاعتراف بالخطأ؟!

هزَّت كتفيها، قائلة:

- ربما.. فأنا جزء من الجهاز الحكومى، وأحاول الالتزام بسياسته الرشيدة.

اشتمَّ الرجل رائحة ساخرة فى كلماتها، فأشاح بوجهه فى عصبية، وقال، فى غلظة واضحة:

- على أية حال.. القيادة السياسية أوصت بالتعاون الكامل معكمًا، ولولا هذا، وبناءً عليه، سنفعل كل ما طلبـــت.

غمغمت فى ارتياح، وهى تضع الثعبان الميت، فى كيس معقّم، من أكياس الأدلة:

- عظيم.. هذا سيحسم الكثير.

توالت الأحداث على نحو روتينى بحت بعدها، وعلى الرغم من هذا، ظلّ توتر (عزت) يتصاعد على نحو عجيب، وهما ينهيان الإجراءات المطلوبة، حتى انصرفا، وتجاوزت سيارة (نهير) بهما بوّابة المعتقل، وهنا أطلق زفرة ملتهبة، كادت تحرق تابلوه السيارة، وهو يهتف، فى انزعاج شديد:

- أخيـــرًا.

سألته (نهير) فى دهشة بالغة:

- أخيرًا ماذا؟!

هتف، وهو يعتدل على مقعده:

- لم أتصوَّر أننا سنخرج منه أبدًا.

التقى حاجباها، ولاذت بالصمت بضع لحظات. وعقلها يسترجع عشرات الصور والمشاهد، قبل أن تقول فى ضيق:

- لو أن هذا ما تشعر به، بعد بضع ساعات، قضيتها فى ذلك المعتقل، فكيف شعور من يقيمون فيه، على الرغم منهم؟!... هل حاولت مجرّد التفكير فى هــذا؟!..

أطلق زفرة أخرى، وهو يقول:

- على الأقل، لم أرتكب ما ارتكبوه.

هتفت بـــه:

- وما الذى ارتكبوه؟!.. خالفوا النخبة الحاكمة فى الرأى والفكر؟!.. أيبدو لك هذا خيانة عظمى؟!.. لو أنهم ارتكبوا جريمة فعلية، أية جريمة ينص عليها القانون، لحاكموهم أمام محاكم جنائية، ولحصلوا على أحكام قانونية واضحة بالسجن لمدّد معروفة واضحة، أو حتى على حكم بالإعدام، لمن قتل نفسًا منهم، ولكن هذا لم يحدث... لقد تم انتزاعهم من فراشهم، واقتيادهم إلى هنا، دون حتى أن يخبرهم مسئول واحد، عن التهمة الموجّهة إليهم..

قال فى حدة:

- ومن أدراك أنه لم يحدث؟!

أجابته فى غضب:

- عقلى.. إنهم محتجزون بلا تهمة، ولمدد لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.. أية عدالة فى هذا؟!..

تضاعفت حدته، وهو يلوِّح بذراعيه، هاتفًا:

- أنت لا تعلمين شيئًا.. هؤلاء، الذين تتعاطفين معهم، كادوا يعرضون البلاد لخطر داهم.

قالت محنقــة:

- وكيف هذا أيها العبقرى؟!

أجابها فى عصبية زائدة، وكأنه يحاول إثبات قناعته بما يقول:

- لقد هدَّدوا السلام والأمن الداخلى، وأشعلوا الفتن الطائفية، وفجَّروا أهدافًا وسط المدنيين الأبرياء، وكوَّنوا رءوس أموال ضخمة لتمويل الإرهاب الداخلى والخارجى، وكل هذا لقلب نظام الحكم، والاستيلاء على السلطة.

هتفــت بـــه:

- لو أنهم فعلوا هذا، فليتم تقديمهم إلى المحاكمة إذن، ولو أنك تصدِّق كل هذا فعلاً، فأنت تجهل كل شئ عن جماعة الإخوان المسلمين، وتخلط بينهم وبين جماعات أخرى، متطرِّفة ومتعصبة، وذات فكر سلفى منغلـــق.

قال فى عصبية متحدية:

- وماذا عن أصحاب رءوس الأموال الضخمة؟!.. هل تصدقين بالفعل، أنهم كوَّنوا وحدهم تلك الثروات الطائلة، أم أننا أمام تمويل مشبوه؟!..

قالت فى مرارة:

- لو أننا طبقنا هذا المبدأ، فستعتقل الحكومة كل مؤيديها ومناصريها، الذين أصابتهم تخمة مالية من كثرة ما حققوا من أرباح، على حساب دم هذا الشعب المسكين، فمنهم من يحتكر الحديد، ومن يسيطر على الموانى، ومن يجمع فى قبضته نظم الاستيراد.. قل

لى بالله عليك، أيها الوطنى المخلص، لماذا لم تعتقل الحكومة كل هؤلاء، ولماذا لم تفترض أنهم، على نحو مباشر أو غير مباشر، يمولون الإرهاب بالفعل، عن طريق تجاوزاتهم العلنية المستفزة.

بدا مصدومًا من منطقها، وعاد ينكمش فى مقعده، مغمغمـــًا:

- ولكن ما تقوله الحكومة..

قاطعته فى صرامة:

- لو أن مصدر ما تقول هو الحكومة وحدها، فهذا أدعى لعدم تصديقه.

هزَّ رأسه فى قلق، وألقى نظرة على مرآة السيارة الجانبية، ليرصد سيارة الطب الشرعى، التى تتبعهما، قبل أن يغمغم:

- عجيب أن يصدر هذا القول، من موظفة حكومية.

قال فى ضيق:

- العمل فى الحكومة شئ، والموافقة على تصرفاتها شئ آخر.

غمغــــم:

- أفراد الجماعة المحظورة لا يعملون فى الحكومة؛ لأنهم يعتبرونها حكومة كافرة.

تنهّدت، قائلة:

- قلت لك: إنك لا تعرف شيئًا عن جماعة الإخوان المسلمين.

تلفّت حوله فى توتر، قبل أن يقول بلهجة متوسّلة، وبصوت شديد الخفوت، وكأنما يخشى أن تسمعه السيارة نفسها:

- أليس من الأفضل أن تتحاشى ذكر اسمها، وأن نقول: إنها الجماعة المحظورة فحسب.

أجابته بمنتهى الحزم والحسم والصرامة:

- كــــلا.

كان هذا فصل الختام، وآخر ما تبادلاه فى أحاديث، حتى وصلا إلى مصلحة الطب الجنائى، حيث تم نقل الجثة فورًا إلى المشرحة، وتم استدعاء كبير الأطباء

الشرعيين؛ لإجراء الفحص الشامل لها، فى حين انتقلت (نهير) مع (عزت) إلى المعمل الجنائى، لإعادة فحص العينات، وفحص جثة الثعبان، الذى تم العثور عليه فى ساحة المعتقل..

وبينما يجريان فحوصهما، تمتم (عزت)، وكأنه يحدِّث نفســـه:

- أتعشَّم أن تثبت فحوصنا أن الوفاة عرضية، و...

قاطعته (نهير) فى استنكار:

- هل صدَّقت قصة الثعبان هذه؟!

التفت إليها بمنتهى الدهشة:

- ولكنك أكَّدت أن الرجل مات بسم ثعبان.

قالت فى حزم:

- بالتأكيد، وما زلت أؤكِّد هذا، ولكننى لم أقل: إن ما قتله هو ذلك الثعبان، الذى عثروا عليه فى الساحة.

بدت عليه دهشة عارمة، وهو يغمغم:

- لست أفهمك.

التفتت إليه، تسأله فى حزم:

– هل تعلم كيف ينفث الثعبان سمه فى الجسد؟!

ارتبك لحظة، قبل أن يجيب:

– عن طريق أنيابه.. لديه حاسة تقوده إلى الدفء، الذى ينبعث من الدماء المتدفِّقة فى الشرايين، فينقض عليها، ويغرس نابيه فيها، وينفث السم.

سألتـــه:

– وأين أثر النابين إذن؟!

بدت عليه الحيرة، فأكملت هى:

– لقد فحصنا معًا كل سنتيمتر من الجثة، فهل رأينا أثر النابين، فى أى جزء منها؟!

اندهش بشدة؛ لأنه لم ينتبه إلى هذا فى حينه، وغمغـــم:

– كلا فى الواقع.

أشارت بسبَّابتها، قائلة، على نحو غير متوقَّع:

– سؤال آخر.. هل تعلم أين يحقن المصل المضاد للتيتانوس.

تمتم مترددًا:

- فى العضـــل.

مالت نحوه، قائلة فى حماس:

- عظيم.. كيف لم نجد فى الجثة إذن سوى أثر حقن حديث، فى وريد الساعة الأيسر؟!

شعر بشئ من الذعر، وهو يسألها:

- ما الذى تعنينه بالضبط؟!

أجابته فى حزم:

- أعنى أن الثعبان المزعوم لم يلدغ القتيل قط، ولكن السم دخل عروقه، عن طريق آخر تمامًا.

سألها مذعورًا:

- عن طريق الحقن؟!

أجابته، وهى تعود لفحص عيناتها:

- هذا ما ستثبته الفحوص.

ظلّ يحدّق فيها بضع لحظات، بهلع غير مبرَّر، قبل أن يسألها:

- ما دمت واثقة من هذا، فلماذا نفحص الثعبان؟!

عادت تلتفت إليه، وهى تقول بابتسامة شديدة الغمــوض:

- لأنه سيمنحنى الدليل.. الدليل الحاسم.

ومرة أخرى، لم يفهم ما ترمى إليه..

أبـــدًا..

* * * * * * *

لم يكد تقرير الطب الشرعى يصل، إلى يد (نهير)، حتى تألّقت عيناها، وقالت فى حماس:

- الآن لدينا وثيقة رسمية.

سألها (عزت) فى حذر:

- هل من جديــد؟!

أجابته فى سرعة:

- كلا، ولكن تقرير الطب الشرعى توصّل رسميًا، إلى نفس ما توصلنا إليه؛ فقد أكّد أن القتيل مات بسم

ثعبان، ولكن جسده لا يحوى أى أثر لعضة الثعبان نفسها، ثم أشار إلى وجود أثر الحقن الحديث أيضًا، فى العروق.

تساءل فى قلق:

- وهل كنت تحتاجين إلى وثيقة رسمية؟!

أجابته فى حسم:

- بالتأكيد، فمن الممكن الطعن فى نتائج فحص الجثة، باعتبار أننا نتبع المعمل الجنائى ومسرح الجريمة، وليس الطب الشرعى، أما الآن، فكل شئ قانونى تمامــــًا.

بدا عليه التوتر، وهو يقول:

- إذن فالطب الشرعى هو الذى حسم الأمر.

أشارت بسبَّابتها، قائلة:

- بل نحن من سنحسم الأمر بإذن الله، ولكن بعد أن نعود إلى ذلك المعتقل.

اتسعت عيناه، وهو يهتف فى هلع:

- نعود إلى هناك؟!.. لماذا؟!

أجابته على الفور:

- لأن هناك فحص آخر، لابد وأن نجريه.. وبأقصى سرعة ممكنة.

سألها فى ذعر:

- أى فحص هذا؟!

أجابته، بلهجة شديدة الغموض:

- عندما نصل إلى هناك، ستفهم كل شئ..

ومرة أخرى، شعــر (عزت) بمزيــج من القلق والغمــوض..

كل الغمــوض..

* * * * * * *

منذ وصلا، فى المرة الثانية إلى المعتقل، لم تدر (نهير) أيهما أكثر توترًا وعصبية، مساعدها (عزت)، أم

قائد المعتقل، الذى حدَّق فيها، بمزيج من الدهشة والاستنكار والغضب، وهو يقول فى حدة:

- هل تريدين حقًا فحص قمامة المعتقل؟!

أجابته فى جدية حاسمة، وهى تومئ برأسها إيجابًا:

- وفورًا دون إبطاء.

سألها فى قلق شديد:

- وما الذى ستبحثين عنه فيها بالضبط.

أجابته فى هدوء عجيب:

- محقن، تم استخدامه حديثًا.

قال فى دهشة:

- طبيب المعتقل يستخدم الكثير منها، وستجدين أكثر من واحد فى قمامتنا حتمًا.

أجابته بنفس الهدوء:

- سأفحصها كلها.

حدَّق الرجل فى وجهها بضع لحظات فى حيرة، قبل أن يميل نحوها، ويسألها فى اهتمام بالغ، امتزج بالقلق:

- ما الذى يدور فى رأسك بالضبط؟!

لم تجب سؤاله، وهى تلقى بسؤال آخر:

- هل تعلم أن فحص الثعبان الميت، الذى عثرتم عليه فى الساحة، قد قدَّم دليلاً جديدًا.

غمغم قائد المعتقل، فى شئ من الحذر:

- حقـــاً؟!

أجابته، وهى تتفرَّس ملامحه فى اهتمام، وكأنما تحاول رصد ردود أفعاله:

- بالتأكيد؛ فقد أثبــت أوَّلا أنه ليس من أنــواع الثعابين شديدة السمية، والأهم أنه أثبت أن نــوع السم فى أنيابه، يختلف عن نوع السم، الذى قتل قيادى الإخوان.

رمتها بنظرة عصبية، وهو يسألها:

- وكيف وصل السم إلى عروقه إذن؟!.. هل كان هناك ثعبان آخر؟!

أجابته حاسمـــة:

- من وجهة نظرى، وكما تقول الأدلة، لم تكن هناك أية ثعابين.. لقد وصل السم إلى عروقه بأسلوب مختلف.

سألها، وقد تضاعف قلقه، ورسم نفسه فى وضوح على ملامحه المتوترة:

- وكيف هذا؟!

أجابته، دون أن تضيع ثانية واحدة:

- عندما استدعيت الرجل إلى مكتبك، جرح مسمار فخذه، ووفقًا للإجراءات الطبية، كان من الضرورى تطهير الجرح، وحقنه بمصل مضاد لميكروب التيتانوس، ولكن المسئول عن هذا حقنه بشئ ما، فى عروقه، بدلاً من مصل التيتانوس، والذى يحقن فى العضل.

ومالت نحوه، وهى تضغط كلماتها جيدًا؛ لتضمن قوة تأثيرهـــا:

- ووفقًا لنظريتى، لقد حقنه شخص ما بسم الثعبان، بدلاً من مصل التيتانوس.

اختنق صوت الرجل، وهو يسألها:

- وما الدافع إلى هذا؟!

أجابته فى سرعة:

- ذلك القيادى كان دائم الشكوى، مثير للمتاعب والمشكلات، على حد قولكم، ولما كان يحتل مكانة مرموقة، فى قيـادات الجماعة، فشكواه ستجد طريقها حتمًا إلى وسائـل الإعلام العالمية، ولجان حقوق الإنسان الدولية، مما يسبِّب مشكلات لا حصر لها، للمشكو فى حقهم، وخاصة لو كانـت الشكوى فى محلها.

قال قائد المعتقل، يكمل حديثها:

- إذن فقد تم قتله، حتى لا تصل شكواه إلى مستـوى أعلـى.

أشارت بسبَّابتها، قائلة:

- بالضبط.

ظلَّ القائـــد ينظر إليها بضع لحظات، قبل أن يرفـــع سمَّاعـــة الهاتف، ويطلب رقمًا داخليًا، ويقول فى حـــزم:

- (رأفت).. احتجز قمامة المعتقل، حتى تقوم الدكتورة (نـهير) بفحصها، وأريدكم جميعًا أن تتعاونوا معها، بكل الوسائل الممكنة.

كان هذا أول تصرُّف حازم، منذ بدأت تلك القضية، فى الصباح المبكر، وعلى الرغم من أن (رأفت) بدا شديد العصبية والتوتر، فقد طلب من عدد من المعتقلين معاونة (نهير) و(عزت)، فى فحص القمامة، وهو يتساءل عما يبحثان عنه فيها..

ولقد استغرق الأمر أربع ساعات كاملة؛ نظرًا لكمية القمامة الهائلة، ولكن فى النهاية، حصلت (نهير) على ثلاث محاقن مستخدمة حديثًا..

وفى حرص شديد، وضعت (نهير) كل محقن منفصلاً، فى كيس من أكياس الأدلة، ووضعت توقيعها

وتوقيع (عزت) عليه، ثم أضافت توقيع (رأفت)، الذى بدا شديد العصبية، وهو يضع توقيعه على أكياس الأدلة، ثم قالت (نهير):

- والآن، أريد أن ألتقى بطبيب المعتقل؛ فلدى بضعة أسئلة فنية، أود أن أطرحها عليه.

كان من الواضح أن هذا لم يرق للضابط (رأفت)، إلا أنه قادهما إلى عيادة المعتقل، وقال للطبيب، وكأنه ينقل إليه تحذيرًا خفيًا:

- السلطات أرسلت الدكتورة (نهير) ومساعدها؛ للتحقيق فى مقتل قيادى الجماعة المحظورة، وتود الدكتورة طرح بعض الأسئلة عليك.

رمقه الطبيب بنظرة، لم تخف على عين (نهير) الفاحصة، قبل أن يغمغم:

- على الرحب والسعة.

سألته (نهير) على الفور:

- من أعطى القيادى القتيل، حقنة مصل التيتانوس.

هزَّ الطبيب رأسه، مجيبًا فى توتر:

- لست أدرى.

سألته مستنكرة:

- أى جواب هذا؟!

أجابها، فى مزيد من التوتر:

- عندما أتوا به، كنت منشغلاً مع مريض مصاب بمغص كلوى حاد، والضابطان اللذان أتيا معه، حصلا قديمًا على دورة فى الإسعافات الطبية للطوارئ، لذا فقد طلبت منهما أخذ المصل، وحقنته به، ولقد فعلها أحدهما، وانصرفا مع القيادى، الذى كان فى صحة جيدة...

سألته فى اهتمام شديد:

- ومن هما الضابطان؟!

أجاب فى سرعة:

- الضابط (عمر) و...

تردَّد بشدة، فسألته فى صرامة:

- ومـــن؟!

أشاح بوجهه، فى توتر بالغ، وهو يجيب:

- والضابط (رأفت).

استدارت (نهير) بحركة حادة إلى (رأفت)، الذى قال متحديـــاً:

- نعم.. أنا أعطيته المصل.. ماذا فى هذا؟!

قالت فى غضب:

- وهل يحقن مصل التيتانوس فى الوريد؟!

أجاب مستنكراً:

- كلا بالطبع.. لقد حقنته به فى العضل.

قال (عزت) فى حذر:

- هناك أثر حقن حديث فى الوريد.

هزَّ كتفيه، قائلاً:

- كان يشعر بالألم، فحقن (عمر) مسكناً فى عروقه.

انعقد حاجبا (نهير)، وهى تعاود التفكير فى الأمر كله، منذ بدايته، وأعاد ذهنها فى لحظات كل الأدلة،

والنتائج، والفحوص، قبل أن تتألق عيناها على نحو مباغـــت؛ فبلا مقدمات، كشفت اللغز، وعرفت من قتـــل القيـــادى..

وحتى بالنسبة لها، كان هذا مفاجأة..

بكل المقاييـــس.

* * * * * * *

3
جريمة.. وعلم..

لم يشعر (عزت) فى حياته كلها بالقلق والتوتر، مثلما شعر بهما، وهو يجلس فى سيارة (نهير)، فى طريق عودتهما إلى القاهرة، والشمس تميل إلى الغروب، معلنة نهاية يوم شاق طويل، وبكل التوتر، الذى تكتظ به نفسه، سأل (نـهير):

– لست أفهم، لماذا سنعود إلى المعمل، فى هذه الساعة المتأخـــرة؟!

أجابته فى حزم:

– هل نسيت أنه لدينا ثلاثة محاقن تحتاج إلى فحصهـــا؟!

سألهـــا:

– وستفحصها للبحث عن ماذا بالضبط؟!

أجابت فى اقتضاب:

– عن دليل مادى.

سألها، وقد بدأ نوبته العصبية:

– دليل على ماذا؟!

صمتت طويلاً هذه المرة، قبل أن تقول:

– دعنا نفحص المحاقن أوَّلاً.

كانت ساعات العمل الرسمية قد انتهت، إلا أن انتداب (نهير) و(عزت)، من قبل القيادة السياسية، فتح لهما كل الأبواب، فبدءا عملية الفحص على الفور، وعلى نحو رسمى تمامًا، و(عزت) يقول فى عصبية:

– ما الذى ينبغى أن نبحث عنه بالضبط؟!

أجابته على الفور:

– الحمض النووى.

سألها مندهشًا:

– أى حمض نووى؟!

أجابته فى نفاد صبر:

- الحمض النووى للقتيل.. أريد أن أعرف أى محقن استخدم؛ لحقنه فى عروقه.

بدا له مطلبها منطقيًا، فبدأ عمله على الفور، على الرغم مما يشعر به من إرهاق شديد، وعندما انتهى من عمله، كانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، وكان هو يتثاءب فى إرهاق وتهالك، وهو يقول:

- هناك محقنان استخدما لحقن القتيل، أحدهما تم حقنه فى العضل، والثانى تحوى إبرته بعض دماء القتيل غير المؤكسدة، مما يعنى أنه استخدم لحقن عقار ما فى الوريد.

سألته فى اهتمام:

- هل قمت بتحليل المادة داخل المحقنين؟!

أومأ برأسه إيجابًا، وتثاءب مرة ثانية، وهو يجيب:

- بالتأكيد.. فالمحقن الأول كان يحوى مصل التيتانوس، والثانى يحوى مادة مسكنة، قوية المفعول.

سألته فى اهتمام أكثر:

- وماذا عن المحقن الثالث؟!

هزَّ رأسه، مجيبًا:

- حمض نووى غير معروف، وعقار مضاد للتقلصات، يستخدم عادة، فى علاج حالات المغص الكلوى الشديد.

انعقد حاجباها، وغمغمت، وكأنما تحدَّث نفسها:

- قصة الطبيب كانت صحيحة إذن.

تمتم، وهو يسبل جفنيه فى تهالك:

- يبدو هذا.

صمتت بضع لحظات، وقد انحفرت على وجهها علامات تفكير عميق، ثم هبّت فجأة، قائلة:

- لابد وأن نعود إلى المعتقل.

اتسعت عيناه عن آخرهما، وهو يهتف مذعورًا ومستنكـــرًا:

- الآن؟!

أجابته فى نشاط، لم يدر من أين أتت به:

- ليس فورًا؛ فلابد وأن أجرى اتصالاً هامًا أوّلاً.

غمغم، فى لهجة أقرب إلى الضراعة:

- ألا يمكننا تأجيل هذا إلى صباح الغد؟!

أجابته فى حماس ونشاط:

- مستحيل!.. كل دقيقة لها ثمنها الآن.

لم يشعر فى حياته كلها بالإحباط، كما شعر به فى تلك اللحظات، فأطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة، وعاد يسبل جفنيه، قائلاً:

- لو أنك تصرّين فسيكون عليك إيقاظى، عندما تنتهين من اتصالك الهام هذا.

انطلقت هى لتجرى اتصالاً، فى حين أغلق هو عينيه، وقبل أن يفكّر فى أى شئ، غرق فى سبات عميـــق..

كان نومه مضطربًا، شديد التوتر، راودته خلاله كوابيس عديدة؛ فقد رأى نفسه و(نهير) يدخلان

المعتقل، فيحيط بهما ضباطه، ويمنعونهما من الخروج، ويلقون به فى زنزانة انفرادية ضيقة..

وفى كابوس آخر، استعاد كلمات (نهير)، عندما سألته: إن كان يشعر بكل هذا التوتر، من ساعات قليلة، قضاها كمحقِّق داخل المعتقل، فماذا عن المحتجزين داخله، ورأى رجال الشرطة يلقون القبض عليهما، بتهمة التعاطف مع معتقلى الجماعة المحظورة، و...

وفجأة، انتفض جسده فى عنف، واستيقظ من نومه، وهبَّ جالسًا فى حركة مباغتة، وهو يهتف:

- دكتورة (نهير).. أين أنت؟!

هتف باسمها ثلاث أو أربع مرات، ولكنها لم تستجب، فانطلق مذعورًا يبحث عنها، فى كل الحجرات المتاحة، ولكنه لم يعثر لها على أى أثر، فتوقَّف لاهثًا، يلقى نظرة على ساعته، قائلاً فى عصبية:

- رباه!.. لقد نمت لساعة كاملة.. تلك العنيدة انصرفت دون أن توقظنى، وذهبت وحدها..

فى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته، كانت (نهير) تجلس فى حجرة مكتب قائد المعتقل، بصحبة الضابـــط (حسن)، الذى قال بصوت منخفض، ليس له ما يبـــرِّره:

- سيادة القائد فى طريقه إلى هنا.. لقد عاد إلى منزله منذ ساعـــة واحدة؛ فلم يكن يتوقَّـــع عودتك المتأخرة هذه.

غمغمت، وهى تفحص المقعد المقابل لمكتب القائد:

- لا بأس.. سأنتظره.

صمت يراقبها بضع لحظات، قبل أن يقول، فى شئ من العصبية:

- من الواضح أنك جمة النشاط يا سيِّدتى، ولسنا جميعًا كـــذلك.

أجابته فى اقتضاب، وهى تواصل فحصها فى اهتمام:

- لا بـــأس.

تضاعفت عصبية وهو يراقبها، حتى لم يعد يحتمل، فهتف بها، فى شئ فى الحدة:

- هل لى أن أعرف عما تبحثين بالضبط؟!..

توقفت، والتفتت إليه، مجيبة:

- عن مسمار.

هتــف:

- أى مسمار؟!

اعتدلت، وتطلَّعت إلى عينيه مباشرة، وهى تجيب:

- ذلك المسمار، الذى جرح قيادى الإخوان فى فخذه.

حدَّق فيها (حسن)، بنظرة لم تفهم ما الذى خلفها بالضبط، وبدا مبهورًا مبهوتًا، وانعقد لسانه فى حلقه، فلم يحر جوابًا للحظات، ولكن الجواب أتاها بصوت قوى، من عند باب الحجرة:

- أنا أمرت بنزعه.

التفتت إلى القائد، الذى دلف إلى مكتبه، مكملاً فى صرامــة:

- بعد أن جرح قيادى الجماعة المحظورة.

ضغط بشدة حروف كلمته الأخيرة، وكأنما ينبهها إلى التسمية المناسبة، ولكنها تجاهلت رسالته الخفية، وسألتـــه:

- وأين هو؟!

أجابها (حسن) هذه المرة، في صوت مضطرب:

- أين هو؟!.. إنه مجرد مسمار.. لقد انتزعناه، وألقيناه في أي صندوق قمامة.

قالت (نهير) بلهجة غامضة:

- ومن المؤكد أنكم قمتم بتنظيف المقعد بعدها.

أجابها القائد، وهو يجلس خلف مكتبه:

- أمر طبيعي.. كان دم المصاب يلوثه، و...

قاطعته في اهتمام:

- ومن قام بنزع المسمار، وتنظيف المقعد.

انعقد حاجبا القائد، في عصبية شديدة، في حين أجاب (حسن)، في عصبية زائدة:

- أنا نزعت المسمار، وأحد المعتقلين قام بتنظيف المقعد من الدم بعدها.

اعتدلت، قائلة:

- هل يمكننى أن ألتقى به؟!

سألها القائد، فى شئ من الحدة:

- تلتقين بمن؟!

أجابته فى حزم صارم:

- بذلك المعتقل، الذى قام بتنظيف المقعد من الدم.

تبادل القائد و(حسن) نظرة عصبية، قبل أن يقول الأوَّل، فى غلظة وخشونة وحدة:

- لا يمكننا أن نذكر هذا بالطبع.. إننا نستدعى أقرب معتقل إلينا، و...

قاطعته مرة أخرى:

- وماذا لو طلبنا منه القدوم؟!

هتف القائد فى غضب شديد:

- وكيف سنطلب منه هذا، ونحن نجهل من هو؟!

أجابته فى سرعة وحسم:

- بالميكروفونات الداخلية.. سنعلن لكل المعتقلين أننا

نريد من قام بتنظيف مقعد مكتب القائد من الدم، صباح أمـــس.

بدا غضب شديد على وجه القائد، ورمقها بنظرة نارية، قبل أن يقول بمنتهى الحدة والتوتر:

- دكتورة (نهير)، قبل أن تتعقّد الأمور أكثر، أخبرينى لماذا عدت فى هذه الساعة المتأخرة، وما الذى تسعين إليه بالضبط، بكل ما تفعلينه؟!

واجهته بصمت، استغرق لحظة واحدة، ولكنه دفعه إلى أن يضيف فى عصبية شديدة:

- لست أحب أن أعود إلى هنا؛ واتنازل عن قضاء الليلة مع أسرتى، لأقضى الوقت هنا فى مهاترات سخيفـــة.

أجابته بلهجة قوية:

- لا أحد منا يرغب فى هذا، ولا تنس أنك قائد معتقل، لم ير نزلائه أسرهم، منذ زمن طويل، ثم أننى ألاحظ أن الضابط (عمر) والضابط (رأفت) ليسا هنا.

قال القائد فى غضب:

- سنستعديهما لو لزم الأمر.. المهم أن تجيبى أسئلتى أولاً؛ لأعلم إلى أين نسير بالضبط.

صمتت لحظة، ثم قالت:

- هذا حقك بالتأكيد.

ثم شدّت قامتها، واعتدلت، وهى تكمل:

- الواقع أن الأمر كان يحيرنى منذ البداية، فمنذ كشفت أن سبب الوفاة هو سم الثعبان، كان السؤال التالى هو: كيف سرى السم فى عروقه، وعندما فحصت الجثة، لم أجد أى أثر لأنياب الثعبان الذى لدغه، ولقد أيَّد الطب الشرعى هذا، فلم تحو الجثة سوى أثر حقن وريدى حديث، وجرح فى الفخذ.. ووقر فى نفسى فى البداية أن أحدهم قد حقن السم مباشرة، فى عروق القتيل، ولهذا بحثنا عن المحاقن فى القمامة، وعندما عثرنا عليها، وقمنا بفحصها، لم نعثر فى أيها على أثر للسم، أما الثعبان، الذى قتله

المعتقلون فى الساحة، فلم يكن المسئول عن الوفاة، وهذا ما أثبته فحص نوع السم لديه.. ثم أننى أعدت دراسة الموقف كله، فوجدت أنه من المستحيل أن يكون أحد الضباط يحمل سم الثعبان فى جيبه، انتظارًا لمصادفة كهذه، قد لا تحدث أبدًا، وهذا يقودنا إلى أن القاتل قد أعد خطته مسبقًا، وعمدًا مع سبق الإصرار والترصُّد، ليبث السم فى عروق القيادى، دون أن يدرك أى مخلوق أنه قد فعل.

بدا القائد شديد العصبية، فى حين تسلَّلت يد (حسن) إلى مقبض مسدسه، فى تحفُّز واضح، ولكن هذا لم يوقف (نهير)، وهى تتابع:

- وبمراجعة الموقف كله، توصَّلت إلى أنه لا توجد سوى وسيلة واحدة، لدفع سم الثعبان إلى عروق قيادى الإخوان.

بدا صوت (حسن) مبحوحًا متوترًا، وهو يسألها:

- وكيف هـــذا؟!

أشارت بسبَّابتها، مجيبة:

– عن طريق مسمار ملوَّث.

التقى حاجبا (حسن) فى شدة، وانتفض القائد خلف مكتبه، فنقلت هى بصرها بينهما، قبل أن تكمل:

– لقد أعدَّ القاتل خطته مسبقًا، فأحضر مسمارًا، أو استغل مسمار موجود فى المقعد بالفعل، ولوَّثه بسم الثعبان، ثم جعل القيادى يجلس على المقعد، وهو يعلم أن المسمار سيجرحه حتمًا، وسيدفع السم فى جسده.

قال القائد، فى صوت شاحب:

– وهل العثور على سم الثعبان أمر متاح للجميع؟!

أجابته فى هدوء عجيب:

– كلا بالطبع، ولكنه ليس مستحيلاً، ففى (مصر) فئة يقال لها (الرفاعية)، وكلهم يربون الثعابين، ويتعاملون معها، فى حياتهم اليومية، ويمكنهم

استخلاص سمومها، بوسائلهم الخاصة، ولو ذهب إليهم شخص من ذوى السلطة، وطلب بعضًا من سم الثعابين شديدة السمية، وادَّعى أن هذا لأسباب أمنية، فسيمنحونه حتمًا ما يريد.

تبادل القائد و(حسن) نظرة شديدة التوتر، وسحب (حسن) مسدسه فى حذر من غمده، فى حين قال القائد فى عصبية:

- تبدو لى أشبه بقصة بوليسية رديئة، من قصص (أجثيا كريستال).

ابتسمت فى سخرية، وهى تقول:

- اسمها (أجاثا كريستى)، وهى لم تكتب فى حياتها كلها قصة بوليسية رديئة، بل كانت أعظم من كتب القصة البوليسية، المرتكزة على الطبائع البشرية، فى التاريخ كله.

قال فى عصبية:

- هذه ليست مشكلتنا الآن.

أجابته بلمحة ساخرة:

- بالتأكيد، فالثقافة فى مجتمعاتنا رفاهية غير مطلوبة.. الأمن هو الاهتمام الأوّل.

قال فى حدة:

- هذه أيضًا ليست مشكلتنا.

قالت فى صرامة:

- بالطبع، فمشكلتنا الرئيسية هى وجود قيادى إخوانى قتيل، وشخص مسئول عن مصرعه.

هتف بهـــا:

- ليس لديك ما يثبت هذه الرواية الرخيصة.. إنها مجرّد تخمينات واستنتاجات.

هزّت كتفيها، قائلة:

- ربما كان لدى دليل حاسم.

هبَّ من خلف مكتبه، صائحًا:

- مستحيل.. الدليل الوحيد لم يعد متاحًا.

أجابته فى سخرية:

- لأنكم انتزعتموه، ومسحتم أثاره تمامًا.

قال القائد فى غضب:

- أمر طبيعى، أن ننتزع من المقعد مسمارًا، يجرح كل من يجلس عليه.

أشارت بسبَّابتها، قائلة:

- ربما بدا لكم هذا مثاليًا، ولكن العلم لا يرى ما تراه عيونكم، فالجريمة الكاملة مستحيلة تمامًا، فى ظل التطوّر العلمى، فى عصرنا هذا.

سحب (حسن) مسدسه بالفعل، وأخفاه خلف ظهره، والقائد يقول فى عصبية شديدة:

- هراء.. لو أن لديك دليل واحد، لم وقفت تؤدين هذه المسرحية الهزلية هنا.

أجابته بلهجة قوية واثقة:

- المسرحية الهزلية تمت هنا، وتسبَّبت فى مقتل قيادى بارز، من جماعة الإخوان المسلمين، ولكن الأمر الذى كنتم تجهلونه، هو أن كل منظفات الدنيا، لن تزيل أثر سم الثعبان إزالة كاملة، ولو فحصنا ذلك

المقعد، بوسائلنا الحديثة، سنعثر حتمًا على أثر السم الثعبان، ومهما بلغت ضآلة ذلك الأثر، فسيكون دليلاً على ما حدث.

لم يستطع (حسن) كبت انفعاله الشديد، عند هذه اللحظة، فأدار فوهة مسدسه نحو (نهير) فى عصبية، هاتفًا:

- ومن سيسمح لك بفحص المقعد، أيتها المتباهية؟!

هتف به القائد مذعورًا:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟!

صاح (حسن)، وعصبية تتزايد:

- لا فائدة من إضاعة الوقت يا سيادة القائد.. إنها تعلم كل شئ.

هتف به القائد، فى غضب شديد:

- أيها الغبى.. إنها لا تعلم شيئًا.. إنها تستدرجنا فحسب.

أجابته (نهير)، دون أن يبدو فى صوتها أدنى خوف، من المسدس المصوَّب إليها:

- خطأ أيها القائد.. إننى أعلم الأمر جيدًا، ويمكننى إعادة رسم الموقف كله؛ فأنت استدعيت القيادى القتيل إلى مكتبك؛ لأنه كان سيتقدَّم بشكوى ضدك، تنشرها وسائل الإعلام العالمية، وتثور من أجلها لجان حقوق الإنسان، مما يهدِّد ماضيك ومستقبلك، ولم يكن من الممكن، مع تاريخك الطويل، أن تسمح بهذا، لذا فقد أعددت خطتك المتقنة، ولوَّثت المسمار بسم الثعبان، قبل استدعاء القيادى، وما أن جلس على المقعد، الذى أشرت عليه باستخدامه، حتى جرحه المسمار، وسرى سم الثعبان فى عروقه، عن طريق الجرح، وبعدها تم تطهير الجرح، وتم حقنه بمصل التيتانوس، مما أخَّر تأثير السم، ولكي تزيل أثار جريمتك، طلبت من الضابط (حسن) نزع المسمار، وتنظيف المقعد، حتى لا يعلم أحد ما حدث، ولقد نفَّذ هو أوامرك؛ لأن الشكوى كانت تشمله أيضًا، واعتمد كلاكما على ضعف مستوى طبيب

المعتقل وخبرته العلمية، الذى سيعجز عن تشخيص الموت بسم الثعبان، وسيفترض أن الوفاة طبيعية، ولكن احتياطيًا، قام (حسن) بإلقاء ثعبان صغير فى ساحة المعتقل؛ حتى تنسب الوفاة إليه، لو تم كشف سبب الموت الحقيقى.. وعندما تصوّرت أننا أخطأنا التقدير، وتصوّرنا أن السم تم بثه بالحقن، أبديت تعاونك التام، على أمل أن ينفى هذا الشبهات عنك تمامًا.. الواقع أنكم قد حسبتم حساب كل شئ.. إلا العلم، وإلا عدالة الخالق عزَّ وجلَّ.

سحب (حسن) إبرة مسدسه، بمنتهى العصبية، وهو يقــول:

– ألم أقل لك: إنها تعلم كل شئ؟!

تلاشى غضب القائد وتلاشت عصبيته فجأة، وهو يقول فى صرامة:

– مجرَّد استنتاج، دون أى دليل.. لقد ألقت ما لديها، فى وجودنا وحدنا، بلا شهود إضافيين، والمقعد

سنقوم بحرقه فى ساحة السجن فورًا، وكل المعتقلين فى زنازينهم، وبعدها ستكون كلمتها أمام كلمتنا.

ابتسمت (نهير) ابتسامة غامضة، وهى تقول:

- وهل تعتقد أنه ليس لكلمتى مصداقيتها؟!

أجابها القائد فى صرامة:

- كلمتك، مهما بلغت مصداقيتها، لا قيمة لها، دون دليل مادى مقبول.

صوَّب (حسن) مسدسه إليها، وهو يقول فى شراسة:

- وكلمتك نفسها يمكن إخراسها بضغطة زناد واحدة.

واجهته فى ثبات، وهى تقول:

- وكيف ستبرِّر قتلى برصاصة مسدسك أيها العبقرى.. هل ستدَّعى أننى، بجسدى الضئيل، حاولت قتلك، فى مكتب قائد المعتقل؟!

هتف بهـــا:

- سنجد أنا والقائد رواية مقنعة، وسيتفق قولانا حولها، تمامًا مثلما تعاونا فى قتل ذلك الحقير، الذى تحدانا، وأراد تدمير مستقبلنا بمشاغباته.

قالت فى غضب ساخط:

- وأنتما رأيتما أن مستقبلكما المهنى، أهم كثيرًا من حياته.. أليس كذلك؟!

أجابها القائد، فى شئ من الازدراء:

- إنه مجرَّد قيادى فى جماعة محظورة قانونًا، أما نحــن..

قاطعته (نهير) فى اشمئزاز غاضب:

- أما أنتما، فتمثلان السلطة، مما يجعلكما أكثر أهمية منه بكثير.

صاح فى تحد:

- هذا أمر طبيعى.

هزَّت رأسها، قائلة:

- المشكلة أن العالم لا يرى ما تريانه، فكل الدنيا تسعى خلفه، وتتجاهلكما تمامًا، ومن الناحية الدولية، هو صاحب كل القيمة، وكلاكما مجرَّد قطع صغيرة، على رقعة شطرنج السلطة.

احتقن وجه القائد فى شدة، والتفت إلى (حسن)، قائلاً فى شراسة صارمة:

- ماذا تنتظر؟!.. أطلق النار عليها.

تردَّد (حسن) لحظة، وهو يقول:

- لابد وأن نرتب القصة أوَّلاً.

ابتسمت (نهير) فى سخرية، وهى تقول فى ثبات، على الرغم من المسدس المصوَّب إلى رأسها فى تحفُّز:

- القصة تم ترتيبها بمنتهى الإتقان، فى ساعة متقدِّمة، وقبل أن أصل إلى هنا.

قالتها، ثم انتزعت من طيات ملابسها جهازًا صغيرًا، ألقته على مكتب القائد، مستطردة:

- فكل كلمة نطقنا بها هنا، تم تسجيلها، بإذن ومعرفة النيابة العامة، وتم نقلها فورًا، إلى مسئولى قسم التفتيش، فى وزارة الداخلية، بأمر الوزير شخصيًا.

امتقع وجهاهما، وغمغم (حسن) فى ذهول:

- مستحيـــل!

أما القائد، فسقط على مقعده، وقد شحب وجهه، حتى كاد ينافس وجوه الموتى، وتطلَّع إليه (حسن) فى ذعر شديد، ثم عاد ببصره وغضبه إليها، وهو يهتف بكل شراســـة:

- فليكن.. ما دمت ترغبين فى القضاء علينا، فلن يضيف قتلك تهمة جديدة.

فى هذه المرة، كان عازمًا على قتلها بالفعل، مما جعلها تتراجع فى حركة حادة، ولكن فجأة، اقتحم الضابط (رأفت) الحجرة، وهو يصوِّب مسدسه إلى (حسن)، صائحًا:

- إلق مسدسك يا (حسن).. لقد انكشف الأمر، ولا داع لتوريط نفسك أكثر.

صرخ (حسن)، دون أن يلتفت إليه:

- لم يعد هناك أكثر.. إنها جريمة قتل، مع سبق الإصرار والترصُّد، وعقوبتها القانونية هى الإعدام، ولا أحد يعدم مرتين.

ودوت رصاصة فى المكان.......

رصاصة أطلقها (رأفت)، اخترقت يد زميله (حسن)، وأجبرته على إفلات مسدسه، و(رأفت) يهتف فى صرامة:

- إنك لم تترك لى خيارًا.

قبل أن تستوعب (نهير) ما حدث، كان عشرات يندفعون داخل المكتب، ومعظمهم من مكتب وزير الداخلية، وبينهم مساعد الوزير شخصيًا، ومساعدها (عزت)، الذى اندفع نحوها، يهتف فى لهفة:

- أأنت بخير؟!

أجابته، وقد شعرت على التو بكل الإرهاق:

- دعنا نغادر هذا المكان.. لم أعد أحتمل البقاء.. هيا.

تركت (عزت) يقود السيارة، فى طريق العودة، وأغلقت هى عينيها فى تهالك شديد، وهى تحاول الاسترخاء، على المقعد المجاور، فالتفت هو إليها مشفقًا، قبل أن يسألها فى صوت خافت:

- هل تعتقدين أنهم سيعلنون ما حدث؟!

غمغمـــت:

- لم يعد هذا يعنينى.. لقد قمنا بواجبنا، وهذا هو المهـــم.

قال فى اهتمام:

- وسائل الإعلام ستسعى خلف الحقيقة، والتاريخ يؤكِّد أنه يستحيل إخفاء الحقائق إلى الأبد.. أليس كذلك؟!

لم يتلق منها جوابًا هذه المرة، فالتفت ليجدها غارقة فى سبات عميق..

سبات أعمق من أن يراودها فيه أبشع الكوابيس..

كابوس المعتقل.

* * * * * * *

(تمت بحمد الله)

مسرح الجريمة

اغتيال

اغتيـال

عبر شوارع (القاهرة)، سار موكب صغير، فى ثلاث سيارات، على نحو هادئ، لم يلحظه أحد؛ ربما لأنه يضمّ رئيس أحد أحزاب المعارضة، الذين يتميَّزون بالتواضع والبساطة، ويهاجمون النظام والحكومة بمنتهى الشراسة، فى الوقت ذاته..

كان الموكب يسير من ميدان التحرير، إلى شارع (ماسبيرو)، ثم يدور فى الاتجاه العكسى، لينطلق بمحاذاة نيل (القاهرة)، نحو كورنيش المعادى، حيث مقر الحزب، الذى يعقد مؤتمره السنوى، وينتظر خطبة هامة من رئيسه، الذى أشار إلى أن الخطاب سيحوى هذه المرة العديد من المفاجآت السياسية والحزبية..

وبينما يتجه الموكب الصغير، نحو ذلك النفق، الذى يمرّ أمام فندق (سميراميس)، كان هناك شاب ملتح، قصير الشعر، يرتدى جلبابًا أبيض، ويتحرّك فى توتر وعصبية، وكأنه ينتظر شيئًا ما..

أو شخصًا ما..

وعند نهاية النفق، كان يقف شابان آخران، لهما لحية مشابهة، ويرتديان جلبابين متماثلين، وعيونهما تحمل كل الترقُّب والاهتمام والانتباه..

وبلغت سيارة رئيس حزب المعارضة ذلك النفق، وهى تنطلق بين السيارتين الأخريين، والتفت الرئيس كعادته، يتطلّع إلى نيل (القاهرة) الساحر، الذى بدا شديد الهدوء، فى ذلك اليوم، الذى خلت فيه الشوارع أو كادت من المارة، بمناسبة العطلة السنوية للثورة، و..

وفجأة، انتفض الشاب قصير الشعر، ورفع جلبابه بحركة عصبية، وأخرج من تحته مدفعًا آليًا، فى نفس اللحظة التى برز فيها الملتحيان الآخران، عند نهاية

النفق، وكلاهما يحمل مدفعًا آليًا مماثلاً، ويصوِّبه إلى السيارة الأولى..

وفجأة، وقبل أن يستوعب ركاب السيارة الأولى الموقف، انهال عليهم سيل من النيران..

وكانت مفاجأة للجميع..

للرئيس..

ورجاله..

وركاب السيارتين المصاحبتين..

والعدد القليل من المارة..

ومع الهجوم الأوَّل؛ لقى ركاب سيارة المقدِّم مصرعهم..

ثم انقض الملتحون الثلاثة على الرئيس، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما، وهتف:

- ولكن لماذا؟!

أجابه الشاب قصير الشعر، وهو يصوِّب فوهة مدفعه إلى رأسه:

- ربما يخبرونك فى الجحيم..

وانطلقت الرصاصات..

القاتلــة..

* * * * * * *

على الرغم من كل ما مرَّت به (نهير)، من حوادث قتل عنيفة، لم تتمالك منع تلك الغصة، التى اختنق بها حلقها، وهى تدور حول سيارة رئيس الحزب الصريع، فى مسرح الجريمة..

كان من الواضح، من الشكل الظاهرى، أن الرجل قد تلقَّى عدة رصاصات قاتلة، فى رأسه وصدره، وأن كل من معه فى السيارة، قد تلقوا رصاصات مماثلة، وأنهم جميعًا قد لقوا مصرعهم على الفور..

وفى توتر شديد، غمغم مساعدها (عزت):

- مرَّت فترة طويلة، منذ شاهدنا حوادث اغتيال عنيفة كهــذه.

بذلت (نهير) جهدًا، لتبدو متماسكة، وهى تقول:

- ومنظمة كهذه.

لم يفهم عبارتها، فالتفت إليها متسائلاً:

- وما الذى يعنيه هذا؟!

أشارت إلى السيارتين الأخريين، وهى تجيب:

- ثلاث سيارات، داخل نفق صغير، وسيارة الهدف المنشود فى المنتصف.. أى شخص عادى، يحاول اغتيال رئيس الحزب، كان سيطلق النار على سيارة المنتصف، ويعدو هاربًا، ولكن فى هذه الواقعة، أطلقوا النار على السيارات الثلاث، وقتلوا ما يزيد عن دستة من الرجال.

قال فى تردُّد:

- ربما أرادوا ألا يتركوا خلفهم شهودًا.

أجابت فى سرعة:

- هذا مؤكـد..

وصمتت لحظة، ثم أضافت فى تكفير:

- ولكن لماذا؟!

أجاب فى دهشة:

- أليس هذا أمرًا طبيعيًا؟!.. لقد ارتكب الجناة جريمة قتل عنيفة وحشية، ومن الطبيعى ألا يتركوا خلفهم شهـودًا.

انعقد حاجباها، فى تفكير عميق، وقالت، وكأنها تُحدِّث نفسها:

- ولكن لماذا؟!.. لو أنهم ثلاثة من الملتحين كما وصف الشاهد الوحيد، الذى جرؤ على الإدلاء بشاهدته، فهذا يعنى أنهم يرتكبون جريمتهم لأغراض دينية وسياسية، وفى مثل هذه الظروف، لا يحاول القاتل إخفاء انتمائه، والقضاء على كل الشهود، على هذا النحو البشع؛ لأن أحد أغراض الاغتيال تكون إعلان موقف ما، وهذا لا يتم سرًا.

حدَّق فيها (عزت) لحظات، ثم لم يلبث أن هزَّ رأسه، قائلاً فى توتر:

- لست أفهمـك.

استدارت إليه متسائلة، فأضاف فى عصبية:

- فى كل جريمة نواجهها، تحاولين البحث عن أسباب سياسية، وتدورين فى فلك نظرية المؤامرة.

سألته فى هدوء:

- وكيف ينتهى الأمر؟!

تضاعفت عصبيته، وهو يقول:

- لست أنكر أنك كنت على حق فيما مضى، ولكن هذا لا يعنى أن تكون الأمور معقَّدة دومًا، على هذا النحو.. كثيرًا ما تكون هناك جرائم عادية، ذات أهداف مباشـــرة.

أشارت بسبَّابتها، مغمغمة:

- ليس فى مضمارنا.

سألها فى حدة:

- أتعنين فى الطب الشرعى ومسرح الجريمة؟!

هزَّت رأسها نفيًا، وهى تتطلَّع إلى رجال الشرطة، الذين راحوا يستجوبون الشاهد الوحيد، فى توتر ملحوظ، وأجابت:

- بل أعنى أنهم لا يرسلوننا، إلا إلى الجرائم، ذات الطابع السياسى... والسياسة، كما تقول أنت دائمًا، أمر شديد التعقيد والتشابك.

انعقد حاجباه، كما لو أنه محنق؛ لكونها على حق، وقـــال:

- على أية حال، هذه مهمة رجال الشرطة، وليست مهمتنا نحن.. كل ما علينا هو أن نفحص مسرح الجريمة، ونصدر تقريرنا الرسمى بشأنه.

غمغمت، وهى تتجه إلى سيارة الرئيس:

- أنت على حق.

سألها فى توتر:

- ألن نبدأ بالسيارة الأولى؟!

أجابت فى حزم:

- الرئيس هو هدف عملية الاغتيال، ولو أن مسرح الجريمة يحوى أية أدلة، فستكون هنا.

أدرك على الفور أنها على حق فلحق بها نحو السيارة دون مناقشة.. وراح الاثنان يفحصان مسرح الجريمة..

كان من الواضح أن الرئيس هو المقصود بالاغتيال؛ فقد تلقَّى العدد الأكبر من الرصاصات، كما تلوَّثت الجهة المجاورة له من الباب، بكومة من الدماء، تفوق ما تناثر على الجهات الأخرى..

وفى اهتمام شديد، راحت (نهير) تفحص جثة رئيس حزب المعارضة، على الرغم من أنها تعلم، أنه فى حالات الاغتيال بالرصاص، لا تكون هناك علامات عديدة، على جثة القتيل، بخلاف آثار الرصاصات والدمـــاء، و..

وفجأة، توقَّفت عن الفحص، وبدت الدهشة على وجهها، وهى تقول لمساعدها (عزت):

- هل ترى هذا؟!

مال (عزت) ينظر، إلى حيث تشير، وسألها:

- ما هذا بالضبط؟!

أجابته فى اهتمام:

- هذه الدماء تلوِّث قميص الرئيس من الداخل، من خلف سترته.

تساءل فى حذر:

- وهذا يعنى.؟!

أجابت فى سرعة:

- لا يمكن أن تتسلَّل الدماء إلى هذا المكان، من تأثير الرصاصات فقط، ثم أنها ليست دماءً سائلة أو متناثرة، كما قد ينشأ عن الرصاصات.

أكمل فى انفعال، وقد أدرك ما تعنيه:

- إنها مسحة من الدماء، كما لو أن.. كما لو أن..

لم يستطع شرح فكرته، فشرحتها فى حسم:

- كما لو أن أحدهم وضع يده هنا، بين سترة الرئيس وقميصه، من الناحيتين.

اتسعت عينا (عزت)، وهو يهتف:

- رباه!.. هذا يعنى أنهم، بعد الاغتيال، قد حاولوا..

هتفت (نهير) مكملة:

- تفتيشـــه.

اعتدل الاثنان، ونظرا إلى بعضهما البعض، وقد التمعت عيونهما، قبل أن تنزع (نهير) قفازى الفحص، وتقول فى حزم:

- أظننى بحاجة إلى إلقاء سؤال أو سؤالين، على شاهدنا الوحيد.

شاهدها (عزت) تتجه نحو رجال الشرطة، الذين يستجوبون الشاهد، وهزَّ رأسه فى عصبية، وهو يغمغم:

- ستورِّط نفسها مرة أخرى.

أما (نهير)، فقد تقدَّمت نحوهم فى حزم، وقاطعتهم قائلـــة:

- أريد سؤال الشاهد بضع أسئلة.

التفت إليها رجال الشرطة، فى تحفُّز واضح، لما يعلمونه عنها، من إصرار على تجاهل كل القواعد، فى سبيل إظهار الحقيقة، وقال أحدهم، فى صرامة عصبية:

- هذه مهمتنا يا دكتورة.. ركزى أنت اهتمامك على مسرح الجريمة.

قالت فى إصرار، دون أن تلتفت إليه:

- هذا جزء من فحص مسرح الجريمة.

تبادل رجال الشرطة نظرة متوترة، ولكن أحدهم لم يحاول منعها، لأنهم يعلمون أنها منتدبة من رياسة الجمهورية، لفحص القضايا ذات الانعكاس السياسى.. أما الشاهد نفسه، فقد اتسعت عيناه فى رعب شديد، كما لو أنها تتجه نحوه لتقتله، لا لتستجوبه، فقالت هى فى هدوء، محاولة تخفيف توتره:

- سألقى عليك سؤالين فحسب.

حدَّق الرجل فيها، فى شئ من الذعر، ثم تطلَّع إلى الضباط المحيطين به، وكأنه يسأله الإذن، ولاحظت (نهير) أن أحدهم قد أومأ له برأسه، فى حركة تجمع بين الموافقة والتحذير، وأن هذا قد جعل الشاهد ينكمش فى مكانه، وهو ينظر إلى الضباط فى خوف، فشدَّت قامتها، قائلة فى صرامة آمرة:

- اتركونا وحدنا.

حدَّق الضباط فيها بدهشة مستنكرة، وانكمش الشاهد على نفسه أكثر، فى خوف شديد، وقال أحد الضباط فى حـــدة:

- سيِّدتى.. يبدو أنك لا تدركين..

قاطعته (نهير)، فى صرامة قاسية:

- قلت: اتركونا وحدنا.. هذا أمر.

اتسعت عيونهم، فى استنكار شديد، وهالهـــم - كشرقيين - أن تعاملهم امرأة بهذه الصرامة، على قارعة الطريق، وهو يرتدون ثيابهم الرسمية، وأمام شاهد يستجوبونه..

ولكنها تعمَّدت هذا..

تعمَّدت أن توصل إلى الشاهد رسالة، تقول: إنها أعلى مكانة منهم، وأنه لو كان عليه أن يخشى أحدًا، فالأفضل أن يخشاها هى، لا هم..

ولقد بدا العناء فى وجوه رجال الشرطة، وهم يواجهونها فى هذا الموقف، لذا كان عليها أن تواصل صرامتها، فصاحت فى قسوة:

- ليس لدينا النهار كله.

تبادل رجال الشرطة نظرة شديدة التوتر، وشعروا بالحنق والسخط؛ لأنها منتدبة من أعلى سلطة فى البلاط، وقال أحدهم وهم يبتعدون، وكأنما يحاول حفظ ماء الوجوه:

- فليكن سنمنحكم عشر..

قاطعته، فى قسوة أكثر:

- سآخذ كـــل ما أريد من وقت، وسأستدعيكم عندما أنتهـــى.

رمقها الضابط بنظرة غضب ودهشة مستنكرة، وهمَّ بالتحرُّش بها، ولكن أحد زملائه جذبه من ذراعه، قائلاً:

- هيا بنـــا.

ثم مال على أذنه، مضيفًا فى توتر:

- هذا أفضـــل.

رمقها الضابط بنظرة غاضبة أخرى، ثم دار على عقبيه، وانصرف فى حنق، وتابعته (نهير) ببصرها،

حتى أصبح على بُعد كاف، ثم التفتت إلى الشاهد، قائلة في هـــدوء:

- قل لي بالضبط: ماذا رأيت؟!

ازدرد الشاهد لعابه في توتر، وتطلَّع إلى الضباط مرة أخرى في خوف، قبل أن يميل نحوها هامسًا، وكأنه يخشى أن يسمعه أحدهم:

- كانوا ثلاثة من الملتحين.. اثنان منهم أطلقوا النار، على السيارة الأمامية، والثالث اندفع نحو السيارة الوسطى، وأطلق النار على الراكب في المقعد الخلفـــي.

سألتـــه:

- وماذا عن السيارة الخلفية؟!

أجاب، وجسده ينتفض، وكأنه يستعيد ذكرى بشعة:

- لقد استسلم ركابها في رعب، ولكن الملتحين الآخرين حاصراها من الجانبين، وعندما انتهى الأوَّل من عمله، فوجئت بهم يطلقون النار على الركاب..

انعقد حاجباها، محاولة تصوُّر ذلك المشهد البشع، ثم سألته فى توتر:

- وما هو عمله، الذى انتهى منه؟!

بدا انفعال شديد على الرجل، وتطلَّع إلى الضباط مرة أخرى فى ذعر، فأضافت فى صرامة:

- هل تقصد تفتيش القتيل؟!

ارتفع حاجباه فى ارتياع، وحدَّق فيها مذعورًا، وكأنه يتساءل: كيف علمت هذا، فى حين صمتت هى، ورسمت على وجهها الصرامة، وهى تتفرَّس ملامحه جيدًا، حتى انهار فجأة، وهو يغمغم:

- لقد أخبرونى أنه...

قاطعته فى صرامة:

- لا تبالى بما أخبروك به.. أخبرنى كل ما رأيت فى صدق، وإلا..

لم تكمل عبارتها عن عمد، وشاهدت ذلك الذعر، الذى ارتسم على ملامحه، والذى شفّ عما يعتمل في أعماقه، فتابعت؛ لتطرق الحديد وهو ساخن:

- هيـــا.

لم تكد تنطقها، حتى قال فى عصبية:

- نعم.. لقد أطلق النار على الرجل، ثم أخذ يفتشه فى سرعةَ، بحثًا عن شئ ما، ويبدو أن.. أن..

لم تحاول مقاطعته، أو حتى سؤاله، ولكنه ازدرد لعابه فى صعوبة، وأكمل:

- ويبدو أن الرجل لم يكن قد لقى مصرعه بعد، فقد تحرَّك فجأة، وحاول أن يمسك القاتل.. ولقد أمسك لحيته بالفعل، و...

بتر عبارته هذه المرة، فى توتر شديد، وأطلّ رعب عجيب من عينيه، وهو يتطلّع إليها، فسألته فى اهتمام بالـــغ:

- وماذا؟!

ظلَّ يحدِّق فيها بضع لحظات، ثم خفض عينيه، مغمغمـــًا:

- وانتزعهـــا.

انعقد حاجباها فى شدة، وهى تقول:

- انتزع لحيته؟!

بدا صوت الشاهد شديد الانفعال، وهو يجيب:

- نعم.. لقد أدهشنى هذا وأفزعنى أيضًا، وكنت أختبئ خلف لافتة إعلانية أرضية كبيرة، وخُيِّل إلىَّ أننى لم أحسن الرؤية، ولكن ذلك القاتل بدا شديد الغضب لما فعله المصاب، ففتح باب السيارة، ولكمه فى وجهه، ثم أطلق عليه دفعة أخرى من الرصاصات، وبصق فى وجهه، وانتزع من جيبه عدة أوراق، ثم أشار إلى الاثنين الآخرين، فأطلقا النار على ركاب السيارة الخلفية، قبل أن يعدو الثلاثة، نحو سيارة كانت تنتظرهم، عند نهاية النفق، وانطلقوا بها مبتعدين، وبعد فرارهم بخمس دقائق تقريبًا، وصلت سيارات الشرطـــة.

سألته فى توتر شديد:

- ألم يحاول رجل أمن واحد التدخُّل، خلال العملية كلهـــا؟!

بدا عليه الذعر، واختلس نظرة خائفة، إلى رجال الشرطة، الذين يراقبون الموقف فى صرامة من بعيد، ثم همـــس:

- لم أر رجل أمن واحد، حتى رجال أمن الفندقين، اللذين وقعت أمامهما الجريمة، إلا بعد فرار الجناة.. لحظتها فقط ظهر رجل أمن، يحمل جهازًا لاسلكيًا، تحدَّث عبره، فأتت سيارات الشرطة بعدها.

انعقد حاجباها، وهى تستعيد الحديث كله فى رأسها.. هناك علامات استفهام عديدة، فى تلك القصة.. وعلامات غموض أيضًا..

الأمر حتمًا ليس كما يبدو..

هناك شخص ما، أو جهة ما، زيَّفت كل هذا..

جهة يهمها إزاحة رئيس الحزب المعارض من الوجـــود..

جهة، ربما كانت أخطر مما يبدو..

وأخطر حتى مما تتصوَّر هى..

ومرة أخرى، قفزت إلى ذهنها نظريتها القديمة..

نظريـــة المؤامـــرة..

تلك النظرية، التى يرفضها مساعدها (عزت) طوال الوقـــت..

والتى تميل هى إليها الآن... وبشـــدة..

راح عقلها يربط الأمور ببعضها البعض، على ضوء المعطيات الجديدة..

وعلى نحو غريزى، تطلَّعت إلى السيارة، التى ما زال مساعدها يفحصها، وإلى رجال الشرطة، الذين يراقبون الموقف فى تحفُّز، وإلى رجال أمن الفندقين، الذين تراصوا، يتابعون ما يحدث، ثم تمتمت:

- لو أن ما تقول صحيح، فـــ..

فجأة، بترت عبارتها، وانعقد حاجباها فى شدة، وراحت أمور عديدة تدور فى ذهنها، قبل أن تسأل الشاهد فجـــأة:

- مما حذرك رجال الشرطة؟!

اتسعت عينا الشاهد فى ارتياع، وتراجع بحركة حادة، وكأنه صنعها على وجهه، فتابعت فى صرامة، حتى لا تمنحه فرصة التراجع:

- ما الذى طلبوا منك ألا تخبرنى إياه؟!

قال فى توتر شديد، وهو يتطلَّع إلى رجال الشرطة، فى خوف واضح:

- لم يقصدوك بالذات؟

زمجرت متعمِّدة، وهى تقول، فى صرامة قاسية:

- ماذا طلبوا منك ألا تخبره لأحد؟!

مرة أخرى، اختلس نظرة مذعورة لرجال الشرطة، ثم همـــس:

- أرجوك ألا تخبريهم أننى أخبرتك.

قالت فى صرامة، مخفية لهفتها:

- لن أفعـــل.

تلفَّت حوله فى قلق، وهمس:

- أخبرونى أنه من الخطر، بالنسبة لى، أن أخبر أى مخلوق، عن لحية القاتل.

انعقد حاجباها مرة أخرى، وتفجَّر صوت قوى فى أعماقهـــا..

الأمر لم يعد مجرَّد نظرية..

بل صار مؤامرة..

مؤامرة حقيقية..

والأسوأ أنها على الأرجح، مؤامرة أمنية..

صمتت لحظات، وتلك الفكرة تعربد فى رأسها، ثم لم تلبث أن قالت فى حزم:

- فليكن.. لا تخبرهم أنك قد أخبرتنى.

غمغم فى شحوب:

- بالتأكيـــد.

هزَّت رأسها، وهى تتطلَّع إليه، ثم التفتت إلى رجال الشرطة، قائلة:

- لقد انتهيت.

تقدَّم رجال الشرطة نحوها، والصرامة لم تفارق ملامحهم بعد، وقال أحدهم فى غلظة، وهو يرمقها بنظرة مستفزة:

- هل يعنى هذا، أنه يمكننا رفع السيارة والجثث من هنـــا؟!

أجابته فى صرامة، وهى تتجه عائدة إلى السيارة:

- ليس بعــد.

لحق بها، قائلاً فى عصبية:

- الشارع ازدحم بالمارة، والكورنيش منطقة حيوية، ولا يمكننا أن نغلقه لفترة طويلة.

أجابته، فى شئ من السخرية، دون أن تتوقَّف، أو تلتفت إليه:

- دعه يغلق مرة، فى سبيل العدالة، كما تغلقونه دومًا، من أجل مرور مسئول كبير.

انعقد حاجباه فى سخط، ولكنه لم يعلِّق على عبارتها، وإنما لوَّح بيده فى سخط، وعاد إلى حيث الشاهد، فى حين واصلت طريقها إلى حيث سيارتها، حيث استقبلها مساعدها (عزَّت)، قائلاً فى عصبية:

- أراهن أنك قد أثرت استفزازهم وحنقهم.

قالت فى هدوء أدهشه:

- لا تجعل هذا يقلقك.

تطلَّع إليها فى دهشة مستنكرة، ثم همس فى قلق عصبـــى:

- بل سيقلقنى يا دكتورة (نهير).. إننا نتحدَّث عن رجال الأمن، الذين يسيطرون على كل شئ، فى العصر الحالى، ومن الخطر أن نتعامل معهم دومًا، بكل استفزاز أو تحدٍّ.

قالت فى سرعة:

- لست أتعامل معهم.

وصمتت لحظة، ثم أضافت فى حزم:

- إننى أتعامل مع العدل والقانون.

لم يكن فى إمكانه مناقشتها، مع هذا المنطق...

ولم يكن فى إمكانه أن يسايرها، فى الوقت ذاته..

لذا، فقد اكتفى بهز كتفيه، وهو يسألها:

- عما تبحثين.

أجابته، وهى تفحص جثة رئيس الحزب فى اهتمام:

- عن دليل.

هزَّ رأسه، قائلاً:

- لقد فحصت السيارة كلها، وجمعت كل ما يمكن، و...

قاطعته فى حزم:

- ولم تعثر على الدليل.

قال فى حدة:

- كل ما تبغين، وضعته فى أكياس أدلة، و...

قاطعته مرة أخرى، وهى تفتح أصابع يد رئيس الحزب المغلقة:

- ولم تجد الأكثر أهمية.

التفت إليها فى اهتمام، وشاهد ما تفعله، فتساءل عما يمكن أن تعثر عليه، فى يد القتيل..

ثم اتسعت عيناه فى دهشة...

فعندما انفتحت اليد، ظهرت داخلها بضع شعيرات سوداء، جعلت (عزت) يرفع حاجبيه فى دهشة ويقـول:

- من أين جاءت؟!

ابتسمت، وهى تلتقط كيسًا من أكياس الأدلة، وتنقل إليه تلك الشعيرات، بوساطة ملقط صغير، فى دقة بالغة، ثم تغلق الكيس فى إحكام، قائلة:

- من القاتـــل.

هتف بدهشة أكبر:

- كيـــف؟!

أجابته، وهى تضع الكيس وسط الأدلة فى حرص:

- ستعرف فيما بعد.

استدارت لتكمل فحصها، وفاجأها أن أحد رجال الشرطة يتطلَّع إليها فى اهتمام، بنظرة تجمع بين الغضب والتوتر، فتمتمت:

- إنهم متورطون.

سألها (عزت) فى دهشة:

- مـــن؟!

أشارت بيدها، قائلة:

- رجال الشرطة.

اتسعت عيناه فى ارتياع، وغمغم فى ذعر:

- رجال الشرطة؟!.. هل تنوين اتهام رجال الشرطة، بجريمة قتل؟!

أجابته فى حزم:

- نحن لا نتهم أحدًا.. عملنا هو أن نجد الأدلة، ونقدمها للعدالة، وهى التى تفهم.

تطلَّع فى هلع إلى رجال الشرطة، الذين راحوا يتهامسون فى توتر، وهم يختلسون النظر إلى (نهير) و(عزت)، فى غضب واضح، ومال على (نهير)، قائلاً:

- لا تتورَّطى فى مثل هذه الأمور.. لن يغفر لك أحد هذا قـــط.

قالت فى حزم:

- وماذا عن الله (سبحانه وتعالى)؟!

قال فى عصبية:

- العدل له وجوه كثيرة.

ابتسمت فى سخرية، وهى تلتقط قطنة مسح:

- فى مسلسلات التليفزيون فقط.

اتسعت عيناه، فى هلع أكثر، عندما شاهد رجال الشرطة يتجهون نحوهما، وهمس فى رعب:

- ماذا تفعلين بالله عليك؟

أجابته فى حزم:

- أحصل على الدليل الثانى؟!

وتألَّقت عيناها، وهى تضيف:

- الدليل الأهــم.

وتضاعف هلع (عزت)..

ألــف مــرة...

* * * * * * *

- "انتهى عملكما هنا.."...

نطقها أحد رجال الشرطة فى صرامة، وهم يلتفون حول السيارة، التى تواصل (نهير) فحصها، فامتقع وجه (عزت)، وهو يقول:

- لقد كدنا ننتهى.

تجاهلت (نهير) الأمر تمامًا، وهى تمسح وجه القتيل، فى منطقة بعينها، ثم تضع قطنة المسح فى أنبوب من البلاستيك، أضافته إلى الأدلة، والضابط يقول، بنفس تلك الصرامة:

- لا يمكننا إغلاق الطريق، أكثر من هذا.. لقد أدى إغلاقه إلى اختناق مرورى فى (القاهرة) كلها.

امتقع وجه (عزت) أكثر، وهو يقول:

- لا بأس.. سننصرف عندما...

قاطعته (نهير)، مكملة فى صرامة:

- عندما ننتهى من عملنا.

بدا الغضب على وجوه رجال الشرطة، وقال آخر فى حـــدة:

- ستنصرفون الآن.

التفتت إليه، قائلة فى تحد:

- هل ترغب فى انصرافنا، بسبب الاختناق المرورى حقـــًا؟!

اتسعت عيونهم فى دهشة، وهتف الرجل فى حدة:

- ما الذى يعنيه هذا بالضبط؟!

أشارت إلى جثة رئيس حزب المعارضة، قائلة:

- أعنى أن هذا الرجل، كان فى طريقه إلى مقر حزبه، ليلقى خطبة شديدة الأهمية، أكَّد انه سيكشف خلالها أسرارًا غاية فى الخطـورة، ولقد نشرت بعض صحف المعارضـــة، أنها أسرار خاصـــة بتعذيب المتعقلين في السجون.

اندفع أحدهم، قائلاً فى حدة:

- هراء.. لو أنه يملك أية وثائق، لأبرزها فورًا.

هزَّت كتفيها، قائلة:

- وربما انتزعها أحدهم من جيبه.

وتفرَّست ملامحهم جميعًا، قبل أن تضيف فى صرامـــة:

- بعد مصرعه.

تفجَّرت دهشة مذعورة فى وجوههم، وتبادلوا نظرة شديدة التوتر، قبل أن يقول أحدهم، وهو يمسك (نهير) من ذراعها فى قوة:

- ستنصرفون من هنا فورًا، أو..

قاطعته فى ثورة صارمة:

- أتعلم أنه يمكننى اتهامك بهتك العرض؛ بسبب ما فعلته الآن؟!

تضاعف توتر رجال الشرطة، وأسرع أحدهم يجذب يد زميله، قائلاً:

- إنه لم يقصد هذا.

صاحت به:

- ولكننى أقصد ما أقول.. مسرح الجريمة ما زال يحتاج إلى الكثير من الفحص والبحث.. هناك فوارغ طلقات الرصاص، والدماء المتناثرة فى كل مكان، وبصمات الأصابع على السيارات الثلاثة، وحتمية مقارنتها ببصمات القتلى، ولو أنكم تحاولون منع كل هذا، على الرغم من أننى أعمل بأمر من رئيس

الجمهورية مباشرة، فسيكون عليكم تبرير هذا لوزير الداخلية، الذى سأجرى اتصال به فورًا؛ ليوفِّر لنا حماية كافية.

ثم تطلَّعت إلى وجوههم المتوترة فى تحد، مكملة:

- من رجال الشرطة.

كان من الواضح أن عبارتها قد أثارت ذروة توترهم، فقد اندفع أحدهم مبتعدًا فى حدة، وتبادل الآخرون نظرة عصبية، قبل أن يقول أعلاهم رتبة:

- لا أحد يقصد إفساد عملك يا سيِّدتى، ولكننا نعانى من ارتباك حقيقى، ونحاول إنهاء الأزمة فى سرعة، ولكن، لو أن هذا يزعجك، أو يعيق عملك، فسنحاول أن نوجد طريقًا فرعيًا، لإفراغ الأزمة، حتى تنتهى مما بين يديك.

ابتسمت، على نحو لم يرق لباقى الضباط، ولكن كبيرهم التفت إليهم، وقال فى حزم:

- هيا بنـــا..

همهم أحدهم بكلمة غاضبة غير مفهومة، فاستطرد في صرامة:

- ما زال أمامنا عمل كثير.

رمقوا (نهير) بنظرة غاضبة، ثم انصرفوا في غضب، فقال (عزت) في شحوب:

- لست أشعر بالارتياح لهذا.

قالت في صرامة:

- أنت لا تشعر بالارتياح، لكثير من الأمور.

قال في عصبية هامسة:

- هذه ليست أمورًا عادية... المفترض أن عملنا وعمل الأمن متكاملان، وأننا، على نحو غير مباشر، نعمل مع رجال الشرطة والقضاء، من أجل تحقيق العدالة.

أجابته في شراسة، لم تعتدها قط.

- وهذا ما أفعله... أعمل من أجل العدالة.. والمفترض أنك تعمل من أجلها أيضًا، والعدالة عمل، لا تعرف المحاباة أو المجاملة، ولن تتوقَّف أمام منصف أو جاه أو سلطة.. هناك عدالة واحدة فقط للجميع، ولو

أنك تخشى تطبيق العدالة؛ لمجرَّد الشك فى أن بعض رجال الشرطة قد انحرفوا عن مهام وظيفتهم، واستغلوا معارفهم وخبراتهم، فى التحول إلى الجريمة المنظَّمة، بدلاً من حماية العدالة، فيمكنك أن تنصرف الآن، وسأعد تقريرًا رسميًا، بأنك قد تعرَّضت لنوبة مرضية مفاجئة؛ لأعفيك من العقاب.

امتقع وجهه مرة أخرى، وهو يتطلَّع إليها، ونقل بصره، على نحو غريزى، إلى رجال الشرطة، الذين وقفوا يتهامسون، حول الشاهد الوحيد، الذى بدا هلعًا مذعورًا، ثم خفض عينيه، وغمغم:

- إننى لم أقصد أن..

قاطعته فى صرامة:

- سؤال واحد يا (عزت).. هل ستواصل العمل، من أجل العدالة، أم ستنسحب فورًا؟!

اتسعت عيناه فى ارتياع، وقال على الفور:

- ماذا تقولين يا دكتورة؟!.. سأبقى إلى جوارك بالطبع، كما فعلت دومًا.

تطلَّعت إليه لحظات، بنفس النظرة الصارمة، ثم ناولته بعض أكياس الأدلة، قائلة، وهى تشيح بوجهها:

- اجمع كل الطلقات الفارغة، وسأرفع أنا البصمات عن السيارة... وبالمناسبة.. اجر اتصالك بالطب الشرعى، لينقلوا جثث الضحايا إليهم، ويبدءوا فحصها فورًا.. أريد التقارير، فى أسرع وقت ممكن.

وقف رجال الشرطة يراقبون ما يحدث، فى توتر ملحوظ، وأشرف بعض رجال المرور منهم على تحويل الطريق، حتى وصلت سيارة الطب الشرعى، وبدأت فى رفع الجثث، وهنا تنفَّس رجال الشرطة الصعداء، وتقدَّم أحدهم إلى (نهير)، قائلاً:

- هل انتهيتمـــا؟!

أجابته (نهير)، وهى تنقل صندوق الأدلة، إلى حقيبة سيارتها الخلفية:

- لقد حصلنا على كل ما نريد من أدلة.

ثم فتحت باب السيارة، ورمقته بنظرة قاسية، مكملة:

- وهذا يكفى لكشف اللغز.

انعقد حاجباه، وهو يراقب سيارتها تبتعد، ثم لم يلبث أن التقط هاتفه المحمول، وأجرى اتصالاً..

اتصال خاص..

جـــدًا..

وفى نفس الوقت، الذى أجرى فيه اتصاله، كان (عزت) يغمغم فى توتر، داخل سيارة (نهير):

- هل تظنين أنهم سيتركون الأمر يمضى، لو أنهم متورطون فى هذه الجريمة البشعة بالفعل؟!

غمغمـــت:

- كلا بالطبع.

حدَّق فيها مذعورًا، قبل أن يتراجع، متمتمًا فى عصبيـــة:

- هذا ما توقعته.

ثم سألها:

- وماذا تتصورين أن يفعلوا؟!

صمتت لحظات مفكِّرة، ثم قالت:

- لو أنهم راجعوا تاريخنا، وعلموا ما نحققه من نتائج، سيشعرون بخطرنا عليهم، وربما يحاولون...

بترت عبارتها دفعة واحدة، فسألها في توتر شديد:

- يحاولون ماذا؟!

صمتت لحظة أخرى ثم أجابت في توتر لم تستطع كبحه:

- قتلنـــا.

تراجع في مقعده كالمصعوق، وهو يهتف في ذعر:

- إلى هذا الحد؟!

عقدت حاجبيها، وهي تقول بنفس التوتر:

- لقد ارتبكوا بالفعل جريمة قتل وحشية، راح ضحيتها إحدى عشر رجلاً، منهم سياسي شهير، ورئيس حزب معارض، كان ينوي كشف أسرارًا خطيرة، ولو أنهم فعلوا كل هذا لإخفاء تلك الأسرار، فلن يتورَّعوا عن ارتكاب جريمة قتل أخرى لحماية أنفسهم.

اتسعت عيناه في رعب أكثر، وهتف:

- يا إلهي!.. يا إلهي!.

تشبَّث بالمقعد، وكأنه يخشى أن ينتزعوه منه، وزاغت عيناه على نحو عجيب، وهو يقول فى ارتياع:

- لا يمكننى تصديق هذا.. لا يمكننى!..

قالت فى ضيق:

- وأنا أيضًا، فرجال الشرطة هم حماة القانون، وظل العدالة على الأرض، وما ينتظره منهم المرء، هو أن يحاربوا من أجل القانون، لا أن يحاربوا القانون نفسه، ومن ناحيتى، أنا واثقة من أن الغالبية العظمى منهم رجال شرفاء، يقاتلون ويضحون، باستقرارهم وعائلاتهم، وأحيانًا بحياتهم نفسها، من أجل الواجب والحق والقانون، ولكن هذا لا ينفى وجود فئة قليلة، تتجاوز حدود مهنتها، وتستغل سلطتها، وتتعامل مع العدالة فى غطرسة وشراسة، وهذه الفئة القليلة، لا يمكننا أن نسمح لها بالبقاء؛ لأنها تسئ إلى الشرفاء، وتفقد الناس الثقة فى الجهاز، الذى يمنحهم الأمن والأمان.

حدَّق فيها فى دهشة، وقال فى عصبية:

- ما هذا بالضبط؟!.. مقال سياسى؟!

أجابته فى حزم:

- بل حقيقة.. للأسف.

توقَّفت فى إشارة مرور، عند تقاطع شهير، وأدهشها أن الطريق شبه خال، على الرغم من ازدحام الطرقات الفرعية، وتطلَّعت فى مرآة السيارة؛ لترصد الطريق خلفها، والتقى حاجباها فى توتر، عندما رأت رجل شرطة، يمنع السيارات الأخرى من العبور، على الرغم من أنه لا يرتدى زى شرطة المرور، وتساءلت فى قلق: ماذا يحدث بالضبط؟!

ثم فجأة، التمعت فكرة مخيفة فى رأسها..

فكرة جعلتها تهتف فى عصبية، وهى تضغط دوَّاسة الوقود فى قوة:

- يا للأوغـــاد!

اعتدل (عزت)، هاتفًا فى ذعر:

- ماذا حدث؟!.. ماذا حدث؟!

بدأت سيارتها تندفع إلى الأمام بالفعل، عندما ظهرت فجأة سيارة كبيرة، رباعية الدفع، من طريق جانبى، وانقضت عليها فى عنف..

وفى لحظة واحدة، حدث التصادم..

اصطدمت السيارة الكبيرة بسيارة (نهير) فى عنف، من الجهة اليمنى، حيث يجلس (عزت)، الذى انطلقت من حلقه شهقة ألم مذعورة، والسيارة الكبيرة تدفع سيارة (نهير) أمامها عبر الشارع، حتى ارتطمت بالرصيف، عند الجانب الآخر منه، وانقلبت فى عنف، و(نهير) تصرخ... وتصرخ.. وتصرخ..

ولكن السيارة الكبيرة لم تتوقَّف..

كان المارة فى الشارع يصرخون..

وسكان العمارات.. وأصحاب المحال التجارية..

ولكن قائد السيارة الكبيرة واصل دفع السيارة المقلوبة أمامه، حتى ارتطمت بجدار المنزل المجاور، وحطَّمت واجهة محلين تجاريين، قبل أن تصمت صرخات (نهير) تمامًا..

وهنا وثب رجلان مقنعان من السيارة الكبيرة، وضرب أحدهما الصندوق الخلفى للسيارة المقلوبة فى عنف، ومَا أن انفتح، حتى اختطف من داخله صندوق الأدلة، وعاد به مع زميله إلى السيارة الكبيرة، وانطلقا بها مبتعدين، فى نفس الوقت، الذى تعالت فيه أبواق سيارات الشرطة، التى تقترب فى صعوبة، مع الازدحام المرورى، الذى تزايدت صعوبته، مع الحادث العنيف، واختفاء رجل الشرطة، الذى كان يغلق الطريق؛ ليسمح لرفاقه بارتكاب جريمتهم..

ودون انتظار وصول رجال الشرطة، التفَّ المارة حول سيَّارة (نهير) المقلوبة، التى راح وقودها ينسكب خارجها، على نحو مخيف، يمكن أن يشعل السيارة كلها، لو لامسته شرارة واحدة..

للوهلة الأولى، بدا وكأن (نهير) و(عزت) قد لقيا مصرعهما، ولكن مع خروجهما من السيارة، سعلت (نهير)، وقالت فى ألم وتوتر شديدين:

- (عزت).. أنقذوا (عزت).

كان (عزت) فاقد الوعى، وهناك إصابة عنيفة فى جانبه الأيمن، وكانت ذراعه مكسورة، وهناك جرح غائر عميق فى جبهته..

ولكن المهم أنه كان حيًا..

وعندما وصلت سيارات الشرطة، كان (عزت) ممدَّدًا أرضًا، وعدد من المارة يحاولون تهويته، فى حين التف عدد آخر منهم حول (نهير)، يسقونها شربة ماء، ويعاونونها على استيعاب الصدمة، وأحدهم يطلب سيارة إسعاف، فتقدَّم أحد رجال الشرطة نحوها، متسائلاً:

- ماذا حـــدث؟!

ابتلعت شربة الماء، وأجابت:

- محاولة قتــل.

خُيِّل للضابط أنه لم يسمع العبارة جيِّدًا، فتساءل فى دهشة وتوتر:

- محاولة مـــاذا؟!

أجابته فى عصبية:

- قتل.. بعض زملائك حالوا قتلنا.

تراجع كالمصعوق، وهو يهتف:

- زملاؤنـــا.

ثم انعقد حاجباه فى غضب، وهو يضيف فى حدة:

- سيِّدتى.. إلقاء الاتهامات جزافًا سوف..

قاطعته، فى حدة أكبر:

- اسمى الدكتورة (نهير).. خبيرة أدلة جنائية ومسرح جريمة، فى رياسة الجمهورية، وأريد الاتصال بأحد كبار المسئولين، فى وزارة الداخلية فورًا.

ذكر رياسة الجمهورية، جعل عينا الضابط تتسعان فى ارتياع، ويحدِّق فى وجه (نهير) فى انفعال، جعلها تستطرد فى عنف:

- الموقف لا يحتمل التأخير.

شعر الضابط بتوتر بالغ، ولكنه قال فى احترام:

- سأبلغ الوزارة فورًا يا سيِّدتى.

لم تمض نصف الساعة، على قوله هذا، حتى كانت سيارة الإسعاف تنقل (عزت) إلى مستشفى الشرطة،

ومساعد وزير الداخلية يلتقى بـ (نهير) فى مكتبه، وهو يقول فى قلق شديد:

- كان ينبغى أن تلحقى بمساعدك، فى مستشفى الشرطة يا سيِّدتى؛ حتى يجرون لك الفحوص والإسعافات اللازمــة.

أجابته فى حزم:

- ليس الآن.. لا أريد أن أمنح الجناة فرصة الفرار بأفعالهم، بإضاعة المزيد من الوقت.

جلس مساعد وزير الداخلية خلف مكتبه، وهو يقول فى توتــر:

- ولكن ما تقولينه بالغ الخطورة يا دكتورة.. إنك تتهمين رجال شرطة، بارتكاب جريمة قتل بشعة، وهذا أمر لا يمكن قبوله، أو حتى تصديقه.

أجابتــه:

- الأمر يتعدَّى مجرَّد الاتهام.. لدى ما يثبت هذا.

بدا عليه الاهتمام الشديد، ومال نحوها، متسائلاً:

- ماذا لديك؟!.

أجابته فى انفعال:

- الشاهد الوحيد على الحادث، تعرَّض لضغوط شديدة، من بعض رجالكم؛ حتى لا يشير إلى أن القاتل كان يرتدى لحية مستعارة، لأن هذا قد يكشف الدافع الحقيقى، وراء حادث اغتيال رئيس الحزب المعارض، ولقد كان رجال الشرطة هم وحدهم، الذين شاهدونى أنقل صندوق الأدلة إلى حقيبة سيارتى، ولقد كان زحام الطريق شديدًا، وعلى الرغم من هذا، فقد ظهر ضابط مجهول، عمل على منع السيارات من السير خلفنا؛ حتى يخلو الشارع، ويتمكَّن الجناة من الاصطدام بنا، وسرقة صندوق الأدلة.. لو أضفنا إلى هذا أن زعيم الحزب كان ينوى كشف المسئولين عن التعذيب فى المعتقلات، والمتورطين فيه، سنجد أن الجماعات الدينية المتطرِّفة بالذات، لا تملك أى دافع؛ لقتل رئيس الحزب، على عكس من تورَّطوا فيما كان يمكن أن يكشفه.

اتسعت عينا مساعد وزير الداخلية، كما لو أن الأمر قد هاله للغاية، وظلَّ يحدِّق فى وجه (نهير) لحظات، قبل أن يقول فى بطء:

- تحليل جيِّد يا دكتورة (نهير).

تمتمت:

- ومنطقـــى.

أضاف فى توتر، وهو يعتدل، على نحو مباغت:

- ولكننا هنا لسنا فى رواية بوليسية لــ (آرثر كونان دويل)، أو (أجاثا كريستى).. إننا فى عالم الواقع والحقيقـــة.

قالت فى حدة:

- وأنا أتحدَّث عن عالم الواقع والحقيقة.

هتـــف:

- كلا يا دكتورة.. أنت تتحدَّثين عن عالم خيالى، يكتظ بالقرائن، والاحتمالات، والاستنتاجات، ولكنه لا يحوى حقيقة علمية واحدة، أو دليل مادى واضح، يمكن الاعتماد عليه.

قالت بنفس الحدة:

- يمكنكم التحقيق فى الأمر.

أجاب فى حزم:

- ليس بدون دليل.

فى الوقت الذى راحا فيه يتجادلان، كان (عزت) يرقد فى مستشفى الشرطة، بعد أن ضمَّد الأطباء ذراعه المكسورة، وأوصلوا جسده بالمحاليل اللازمة لإنعاشه، وتعويض ما فقده من دماء..

وفى قلق، ألقت الدكتورة (أسماء) نظرة على تذكرته الطبية، قائلة:

- المفترض أن يتم نقل هذا المصاب إلى قسم الحوادث.

أجابها أحد الضباط المصاحبين له فى صرامة واضحة:

- الأوامر تقضى بوجوده هنا.

تطلَّعت إليه فى دهشة، قبل أن تقول:

- أوامر.. وما شأن الأوامر بالعلاجات والنظم الطبية؟! المفترض أن يحسم الطب الأمر، لا القانون.

أجاب بنفس الصرامة:

- هذه حالة خاصة.

سألته فى فضول:

- أهو متهم فى قضية ما؟!

هزَّ رأسه، قائلاً:

- كلا.. إنه ضحية محاولة قتل.

هتفت فى دهشة:

- قتـــل؟!..

والتفتت تتطلَّع إلى (عزت) مرة أخرى، قبل أن تضيف فى عصبية:

- كيف يوضع هنا إذن، دون حراسة؟.

زمجر، قائلاً:

- أظن هذا ليس شأنًا طبيًا.

انعقد حاجباها فى غضب، وتطلَّعت إليه فى تحد، ثم قالت فى صرامة:

- أنت على حق.. سأمنع زيارته تمامًا.

واتجهت إلى باب الحجرة، مستطردة، دون أن تلتفت إليه:

- وأظن هذا شأنًا طبيًا.

رمقها بنظرة غاضبة صارمة، وانتظر حتى غادرت الحجرة، ثم التقط هاتفه المحمول من جيبه، وطلب رقمًا خاصًا، ولم يكد يسمع صوت محدِّثه، حتى قال، فى صوت خافت:

- إنه هنـــا.

سأله صاحب الصوت فى صرامة:

- أأنت وحدك معه.

غمغم الضابط:

- نعـــم.

قال صاحب الصوت، فى صرامة قاسية:

- قم بما ينبغى عليك فعله إذن.

شعر الضابط بتوتر شديد، وهو يقول:

- ألم نكتف من القتل.. إنه مصاب، وفاقد الوعى، ولست أظنه يمثِّل لنا أى خطر.

بدا له صاحب الصوت أكثر صرامة وغضبًا، وهو يقـــول:

- وهل سننتظر، حتى نكشف هذا؟!

تضاعف توتر الضابط، وهو يقول:

- ولماذا لا ننهى الأمر على نحو آخر؟!... ما حدث فى المعتقل لم يكن مقصودًا، أما ما نفعله الآن، فــ..

قاطعه صاحب الصوت فى حدة:

- نفذ الأوامر.

شعر الضابط بمرارة شديدة، تسرى فى عروقه، وبتوتر عنيف، يشمل كيانه كله، وهو يقول:

- تمام يا سيِّدى.

أنهى الاتصال، وتطلَّع بكل توتر الدنيا إلى (عزت) الفاقد الوعى، وغمغم:

- ما الذى أصبحنا عليه؟!

هزَّ رأسه فى أسى، ثم أخرج من جيبه محقنًا، يحوى سائلاً عكرًا، واتجه نحو زجاجة المحلول، الذى يسرى فى عروق (عزت)، وتمتم:

- أتعشَّم أن تكون آخر الضحايا يا رجل.

قالها، ودس إبرة المحقن فى زجاجة المحلول..

وحقن المادة العكرة....... السامــة..

فى نفس اللحظة، التى فعل فيها هذا، كان مساعد وزير الداخلية يواجه (نهير) فى صرامة شديدة، قائلاً:

- لا يا دكتورة.. لن أشغـل سيادة الوزير، وأنتزعه من أعماله الهامة، ومسئولياته الجسام، من أجل بعض القرائن، التى لا يمكن أن ترقى إلى مستوى الحقيقـة.

صاحت بـه:

- تلك القرائن تشير إلى خلل بالغ الخطورة، فى كيان الوزارة، وفى مصداقيتها وثقة الناس بها، وهذا يبدو لى من المسئوليات الجسام.

عقد كفيه خلف ظهره، وقال فى صرامة:

- آسـف.

هزّت رأسها فى قوة، قائلة:

- ليس عليك أن تعتذر لى.. وفر هذا لسيادة رئيس الجمهورية، الذى سأقدم له تقريرًا رسميًا الآن، بكل ما أخبرتك به، وسأضيف إليه أنك حاولت منعى من التوصل إلى الحقيقة؛ لسبب غير منطقى وغير مفهوم.

اتسعت عينا الرجل، وهو يهتف:

- أنـــا؟!

واصلت هجومها، قائلة فى صرامة حادة:

- وسيكون عليك أن تبرِّر كل هذا للرئيس، ولوزير الداخلية أيضًا، وخاصة لو ثبت أن كل هذا ليس أوهامًا، بل حقائق.. حقائق مخيفة للغاية.

واصل الرجل اتساع عينيه لحظة، ثم بذل جهدًا لاستعادة رباط جأشه، وهو يقول فى عصبية:

- لست أحاول إخفاء شئ يا دكتورة (نهير)... كل ما طلبته هو دليل.. دليل واحد.. ولست تملكين ذلك الدليـــل.

انعقد حاجباها، وشدَّت قامتها، على الرغم من آلام جسدها، وهى تقول:

- وماذا لو أننى أمتلكه؟!

أجاب فى حذر:

- فى هذه الحالة، ربما يختلف الأمر.

ثم استدرك فى توتر:

- ولكنك تقولين أنهم سرقوا صندوق الأدلة.

قالت فى سرعة:

- هذا صحيح.

ثم شدَّت قامتها، مضيفة فى حزم:

- ولكن الدليل بقى معى..

وكان هذا القول مفاجأة..

قويـــــة...

* * * * * * *

- "يا إلهى!!.. ماذا تفعل؟!.."..

صرخت الدكتورة (أسماء) بالسؤال فى هلع، وهى تحدِّق فى المحقن، الذى يمسك به الضابط، والذى انغرست إبرته فى زجاجة المحلول، الذى يسرى فى عروق (عزت) الفاقد الوعى مباشرة..

وفى ذعر ملحوظ، التفت إليها الضابط، وسحب إبرة المحقن من المحلول، فى حركة حادة، وحاول أن يقول

شيئًا، ولكن الموقف بدا أوضح من أن يجد له تفسيرًا.. أو تبريـــرًا..

ولم تكـــن الدكتورة (أسماء) بحاجة لهذا أو ذاك.. لقد انطلقت تعدو خارج حجرة (عزت)، وهى تصرخ:

- سيقتله.. النجدة.. النجدة.

ألقى الضابط المحقن من يده، وانطلق يعدو، محاولاً الفرار من المكان، ولكن اثنين من زملائه انقضا عليه، وأمسك أحدهم ذراعه فى قوة، فصرخ فى عصبية، وهو يحاول الإفلات منه:

- إنها مجنونة.. أنا لم أفعل شيئًا.

عادت (أسماء) إليه، صارخة:

- لقد كان يمسك محقنًا، ويحاول حقن سائل ما، فى المحلول.. لقد كان يحاول قتل المصاب.

صرخ الضابط، وقد تولاه ذعر شديد:

- إنها كاذبة.. كاذبة.

ولكن الضابط الآخر انحنى، يلتقط المحقن، وهو يقول فى صرامة:

- هل تعنى أننا، لو فحصنا هذا المحقن، فلن نجد عليه بصماتك، أو سنجد أن تلك المادة العكرة، هى مادة غير ضارة؟!

امتقع وجه الضابط وبدا أشبه بالمنهار وهو يغمغم:

- كنت مضطرًا.. لقد دفعونى إلى هذا.. كنا نحاول حماية أنفسنا.

وارتفع حاجبا الدكتورة (أسماء)، بمنتهى الدهشة.. فهى المرة الأولى، التى تشاهد فيها رجلاً منهارًا، على هذا النحو..

ولم تكن حتى تتخيَّل، أن يكون هذا الرجل ضابط شرطـــة!!..

لم تكن تتخيَّل أبدًا..

* * * * * * *

(نهير) أيضًا لم تكن تتخيَّل رد الفعل العنيف، الذى حدث، داخل مكتب مساعد وزير الداخلية، عندما أعلنت أنها تملك الدليل..

لقد اتسعت عينا الرجل، وحدَّق فيها بدهشة بالغة، قبل أن يهتف، فى انفعال جارف قوى:

- الدليل؟!.. أحقًا تملكين الدليل؟!

أجابت فى حزم:

- بالتأكيد.

ثم أخرجت من جيبها أنبوب صغير، وهى تكمل:

- القاتل، الذى قتل رئيس الحزب، اشتبك معه فى مشاجرة صغيرة محدودة، لقى الرجل بعدها مصرعه، وبصق القاتل على وجهه.. وهذا الأنبوب يحوي مسحة من تلك البصقة، التى وجدتها على وجه القتيل، وهى تحوي الحمض النووى للقاتل.

خُيِّل إليها أن مساعد وزير الخارجية سيثب نحوها، ويختطف الأنبوب من يدها، مع اللهفة الواضحة فى عينيه، وهو يحدِّق فيه، حتى أنها أرجعت يدها نحو ظهرها فى قلق، ولكن الرجل نقل كل لهفته إلى صوته، وهو يقول:

- انتظرينى لحظة يا دكتورة.

قالها، واندفع خارج المكتب، وتركها وحدها، تشعر بدهشة وحيرة بالغتين، وتحيا لحظات ارتباك عنيفة..

ماذا يحدث بالضبط؟!.. لماذا أصابه كل هذا؟!..

ما سر انفعاله الشديد؟!..

وأين ذهب؟!.. أيـــن؟!..

قبل أن تكتمل تساؤلاتها، عاد الرجل إلى مكتبه، بنفس اللهفة والانفعال، وهو يقول:

- هل يمكنك أن تصحبينى يا دكتورة؟!.. هناك من يرغب فى رؤيتك فورًا.

تساءلت، وهى تتجه نحوه فى حذر:

- من؟

تجاهل إجابة السؤال وهو يفسح لها الطريق مكررًا:

- تفضّلى.

تردّدت لحظة، ثم صحبته، وسارا معًا فى ممر طويل، يكتظ برجال الحراسة، حتى بلغا مكتبًا فاخرًا، والمساعد يقـــول:

- الأوامر هى أن نلتقي بالسيد الوزير مباشرة، ودون المرور بمدير مكتبه.

ارتفع حاجباها، وهى تغمغم فى دهشة:

- الوزيـــر؟!

نطقت كلمتها، فى نفس اللحظة التى دخلا فيها مكتب الوزير الذى نهض يستقبل (نـهير)، متسائلاً فى اهتمام شديـــد:

- هل تملكين دليلاً ماديًا بالفعل يا دكتورة؟!

رفعت الأنبوب أمام وجهها، وهى تجيب:

- هذا صحيح، ولكنه يحتاج إلى...

قبل أن تتم عبارتها، قال الوزير فى حسم:

- كل ما تحتاجين إليه سيتم توفيره لك فورًا، وسنضع المعمل الجنائى كله تحت أمرك ورهن إشارتك.. المهم أن تخبرينا، من اغتال رئيس حزب المعارضة.

بدا لها الأمر عجيبًا حقًا، فى تلك اللحظات..

أو أنه مخالف لكل ما تصورّته..

وكل ما توقّعته..

ففى البداية، كانت تظن أن اغتيال رئيس الحزب المعارض قد تم، بأوامر سيادية عليا..

تم للتخلُّص منه..

ومن شعبيته.. ومعارضته القوية..

ولكن ما يحدث داخل مكتب الوزير يوحى بالعكس تمامًا.. ربما تكون هناك مؤامرة بالفعل.. ولكنها ليست رسمية..

فقط مجرَّد مؤامرة، لعدد من ضباط الشرطة، الذين تورَّطوا فى تعذيب المعتقلين، وانتهاك حقوقهم..

هذا بفرض أن الاعتقال، ليس فى حد ذاته امتهان للحقوق، وإهانة للحرية وإساءة لكل بلد محترم..

ولكن ما يهمها، ويثير مشاعرها، فى هذه اللحظة بالذات، هو أن الوزير شخصيًا شديد الاهتمام، بما يحدث فى وزارتـــه..

وشديد الاهتمام بكشف الجناة.. ومعاقبتهـــم..

وهذا يؤيِّد نظريتها الأساسية..

معظم رجال الشرطة شرفاء..

ولكن هناك قلة.. قلة تسئ إلى النظام كله..

ولابد من كشفها.. ومعاقبتها..

واجتزازها من هذا الجهاز الشريف.. تمامًا..

انفرجت شفتاها، وهمَّت بقول شئ ما، عندما ارتفع رنين هاتف مساعد الوزير الخلوى، فالتقطه فى سرعة، وهو يقول فى لهفة:

- هل من جديد؟!

انعقد حاجباه فى اهتمام شديد، وهو يستمع إلى محدِّثه، وتابعه الوزير شخصيًا بعينيه فى فضول واهتمام، حتى انتهى من سماع محدثه، ثم قال فى لهجة حازمة آمرة:

- تحفَّظوا عليه، حتى نصل إليكم.

وأعاد هاتفه إلى جيبه، وهو يقول فى انفعال:

- أحد ضباطنا حاول اغتيال مساعدك فى المستشفى.

اتسعت عيناها، وهى تهتف:

- (عزت)؟!

أجابها فى سرعة:

- اطمئنى.. لقد أنقذوه فى اللحظة الأخيرة، وهم يسعفونه مما سرى فى دمائه الآن، ولكن المهم أنهم قد ألقوا القبض على ذلك الضابط، وهو فى قبضتنا الآن.

وتألّقت عيناه، وهو يرفعهما إلى الوزير، مستطردًا:

- أتعلمون ما الذى يمكن أن يعنيه هذا؟!

أجابه الوزير فى حزم:

- إننا قد أمسكنا طرف الخيط.

هتفت (نهير) فى حماس:

- بالضبـــط.

* * * * * * *

- "ولكنكم تعلمون بالأمر منذ البداية.."..

ألقت عبارتها هذه، وهى تجلس إلى جوار مساعد وزير الداخليـــة، فى واحدة من سيـــارات الشرطة، تنطلق بهما نحو المستشفى، فعقد الرجل حاجبيه، وهو يجيـــب:

- ربما نعلم بأمر تعذيب المعتقلين، ولكننا نجرى تحقيقات فى هذا الشأن، ونحاول التوصل إلى المسئوليـــن عنه.. صدقّينى يا دكتورة، هذا ليس أمرًا منهجيًا، كما قد يتصوَّر البعض.. إنها تجاوزات فرديـــة، من بعض الأفراد، المصابين بسادية

مرضية، ونحن لا نسكت عن هذا أبدًا، ولكن هناك مؤامرة لإخفاء أسماء المتورطين، خاصة وأن تجاوزهم قد أدَّى إلى مصرع أحد المعتقلين، متأثرًا بالتعذيـــب.

قالت فى توتر:

- كان يمكننى أن أكشف الجانى، فى هذا الأمر.

هزَّ رأسه نفيًا، وهو يجيب:

- للأسف.. لقد افتعلوا حريقًا، فى عنبر الغسيل، احترقت معه جثة الرجل تمامًا، ولولا بعض زملائه الذين كشفوا تعرُّضه للتعذيب، لما علمنا بالأمر.

قالت فى ضيق:

- يمكننى استنتاج الباقى.. لقد توصَّل رئيس حزب المعارضة إلى الحقيقة، بوسيلة ما، ربما عبر وثائق تم تسريبها إليه، أو ربما عبر بعض الضباط الشرفاء، الذين لم يمكنهم احتمال هذا.. وعندما هم بكشف ما لديه، كان من الضرورى التخلُّص منه، حتى لا ينكشف أمر الجناة، ويتم عقابهم.

أجاب فى عصبية:

- بالضبط.

وصمت لحظة، ثم أضاف:

- ولكنهم أشعلوا الدنيا، بدلاً من أن يطفئوها، وهذا يشفّ عن غبائهم وتعنتهم، وذعرهم من انكشاف أمرهــم.

تمتم فى حنق:

- لقد حاولوا اغتيال (عزت).

قال فى اهتمام متوتر:

- هذا دليل آخر على فقدانهم لمنطق وعقلانية الأمور... لقد اشتعل خوفهم، حتى أنهم حاولوا قتل الرجل، فى مستشفى الشرطة.

تمتمــت:

- أقسم أن يدفعوا الثمن.

قال فى حزم:

- سيدفعونه إن شاء الله.

ظلّت عبارته تدوى فى أذنيها، حتى وقفت أمام ذلك الضباط، الذى بدا شديد التوتر والانهيار، وهو يقول:

- لم أكن أسعى لهذا.. كنت نفذ الأوامر فحسب.

سأله مساعد وزير الداخلية فى صرامة:

- أوامر من؟!

زاغت عيناه، وبدا شديد الرعب والهلع، وهو يقول:

- لا.. لا يمكننى أن أخبركم عنه.. سيقتل عائلتى كلها.. إنه قادر على فعل هذا.. لا يمكننى أبدًا.

كان مساعد وزير الداخلية يهمّ بالصراخ فى وجهه، ولكن (نهير) أمسكت يده فى قوة، وهى تتطلّع إلى الضابط المنهار فى اهتمام، فالتفت إليها الرجل بحركة حادة، لتهمس فى حزم:

- ليس بهذا الأسلوب.

قالتها، وغادرت المكان فى حركة سريعة، فتردّد مساعد وزير الداخلية لحظات، ثم لحق بها، وسألها فى اهتمـــام:

- ما الذى أثار اهتمامك؟!

أجابته فى سرعة:

- أمران غاية فى الأهمية.. أوّلهما أن الضابط مصاب بذعر شديد، وثانيهما قوله أنه ينفذ الأوامر.

سألها فى حيرة:

- وما الذى يعنيانه؟!

تطلَّعت إليه مباشرة، وهى تقول:

- أن الذى دبَّر كل هذا، واحد من جهاز الشرطة، يحتلّ منصبًا رفيعًا، إلى أقصى حد.

اتسعت عينا مساعد الوزير، وهو يغمغم فى ارتياع:

- أتقصدين أنه من المحتمل أن...

لم يستطع إكمال عبارته، فأكملتها هى فى حزم:

- نعم.. من المحتمل أن يكون أحد مساعدي وزير الداخليـــة.

اتسعت عيناه أكثر، وتراجع كالمصعوق، وهو يقول:

- مستحيـــل!

أكملت بنفس الحزم:

- لو راجعت المعطيات، لن تجد فى هذا مستحيلاً.

وحدَّق فيها الرجل بذعر...

بمنتهى الذعر..

وبعد ساعات ثلاث، كان يقف معها فى مكتب الوزير، مع ثلاثة من مساعدى الوزير الآخرين، والوزير يسير أمامهم، قائلاً فى صرامة:

- الموقف الذى نواجهه الآن، ليس بالموقف البسيط.. إننا أمام حادثة اغتيال عنيفة، لواحد من زعماء أحزاب المعارضة، وهذا يعنى أن كل صحف ووسائل إعلام العالم ستحاصرنا؛ لمعرفة كيف تم هذا، فى غياب أمني تام.

غمغم أحدهم:

- لم يبلغنا أحد أن..

قاطعه الوزير:

- لسنا هنا للتباحث، فيمن المسئول من عدم تأمين موكب رئيس الحزب.

قال آخر فى توتر:

- جرت العادة على تأمين مواكب زعماء الحزب الحاكم وحدهـــم.

أشار الوزير بيده، قائلاً:

- وهناك من يعلم هذا، وبنى خطته كلها على هذا الأساس، وعلى كل المعلومات، التى وصلته بحكم منصبه، عن عزم رئيس الحزب، على كشف عمليات تعذيب المعتقلين، وإعلان أسماء المسئولين وزراء هـــذا.

تساءل الثالث:

- أى منصب هذا، الذى يتيح لشخص ما، معرفة كل هـــذا؟!

شدَّ الوزير قامته، وهو يجيب فى صرامة:

- منصب مساعد وزير الداخلية.

تفجَّر الذعر فى وجوه ثلاثتهم، وهتف أحدهم مستنكـــرًا:

- سيادة الوزير.. هذا يبدو أشبه باتهام.

أجابه الوزير بمنتهى الصرامة:

- بل هو اتهام مباشر، فثلاثتكم فقط، من بين مساعدى الوزير، كان بإمكانكم الوصول إلى كل المعلومات،

عن رئيس الحزب وما يعتزمه، وكل منكم يشرف على المعتقلات، على نحو أو آخر، ويمكنه إجراء عمليات التعذيب الوحشية، أو الأمر بذلك.

رمق أحدهم (نهير)، التى تجلس صامتة فى الركن، بنظرة قاسية، وهو يقول فى عصبية:

- هذا اتهام خطير يا سيادة الوزير، وبدون أدلة مادية، أعتقـــد أن..

قاطعه الوزير مرة أخرى، وهو يشير إلى (نهير):

- الدليل يا دكتورة.

تقدَّمت (نهير)، والثانى يقول فى توتر:

- ولكن صندوق الأدلَّة تمت سرقته، خلال محاولة قتلهـــا.

أخرجت (نهير) الأنبوب من جيبها، وهو تقول:

- خطأ.. لقد بقى الدليل الأساسى معى.. عينة حمض نووى من القاتل، الذى هو حتمًا أحد ضباط المعتقل، الذى تم فيه التعذيب، وأنه أحد المشاركين فى هذا بشدة، وبإجراء فحص حمض نووى، لكل الضباط

هناك، سينكشف القاتل، وعندئذ لن يواجه التهمة وحده، وسيرشد حتمًا إلى من أمره بارتكاب فعلته الوحشيـــة.

تبادل المساعدين الثلاثة نظرة متوترة، وقال أحدهم فى عصبية:

- هذا الأسلوب يصلح للقصص البوليسية، وليس لعالم الواقـــع.

التقطت (نهير) هاتفًا محمولاً من جيبها، وقالت:

- على العكس، إنه واقعى تمامًا، وسأثبت لك هــذا الآن.

ضغطت أزرار الهاتف فى سرعة، فانطلق رنين واضح داخل الحجرة..

رنين الهاتف المحمول، لأحد المساعدين..

وبابتسامة ظافرة، قالت (نهير):

- واقعى.. أليس كذلك؟!

امتقع وجه الثانى، وحاول أن يوقف رنين هاتفه، والوزير يقول فى صرامة:

- إنه هاتف الضابط، الذى حاول اغتيال مساعد الدكتورة (نهير)، فى مستشفى الشرطة.. وهذا هو

الرقم، الذى أمره بهذا.. لم نعثر على ملف له، يوضِّح من صاحبه، واقترحت الدكتورة هذه الوسيلة شديدة البساطة، وشديدة الفاعلية أيضًا.

زاغت عينا الرجل، وحاول أن يفعل شيئًا..

أى شئ..

ولكن المصيدة كانت قد أطبقت عليه تمامًا..

ولم يعد هناك مفر..أى مفــر..

استعاد ذهن (نهير) هذا الموقف، وهى تجلس إلى جوار (عزت)، الذى فتح عينيه، ليجدها إلى جوار فراشه فى المستشفى، فقال فى ارتياح:

– أأنت بخير؟!

ابتسمت (نهير)، وهى تقول:

– نعم يا (عزت).. حمدًا لله على سلامتك.. كنت شديدة القلق عليك.

تمتــم:

– أشكــرك.

ثم سألها فى اهتمام قلق:

- هل.. هل انتهى الأمر؟!

أومأت برأسها إيجابًا، وقالت:

- حمدًا لله.

سألها فى لهفة:

- ماذا حدث؟!

أجابته فى ارتياح:

- كانت مؤامرة بالفعل، تورَّط فيها عدد كبير من ضباط الشرطة، على رأسهم مساعد وزير الداخلية.. حاولوا إخفاء جرائهم بجريمة أبشع، وتصوَّروا أنهم بهذا يحمون أنفسهم.

ســـأل:

- وهل ألقوا القبض عليهم؟!

ابتسمت مجيبة:

- كلهم.. وستتم محاكمتهم عسكريًا؛ فالقيادة السياسية كلها شديدة الاهتمام بالأمر.

سأل فى حذر:

- وهل سيعلنون الأمر؟!

هزَّت رأسها نفيًا، مجيبة:

- لست أظن هذا.. ما زالوا يتعاملون مع هيبة الدولة من منظور خاطئ، ويتصوَّرون أن إخفاء الأمر يحافظ على هيبة الشرطة.

غمغم (عزت):

- أعتقد أن العكس صحيح تمامًا.

ابتسمت قائلة:

- أشاركك هذا.

ثم راح الاثنان يتحدَّثان، ويتبادلان المعلومات، وراحت (نهير) تروى له ما حدث بالتفصيل، بعد أن انتهت المؤامرة..

مؤامرة اغتيال.. العدالة..

* * * * * * *

(تمت بحمد الله)

الفهـــرس

- المعتقـــــــــــل 5
- اغتيـــــــــــال 87

مسرح الجريمة 2

د. نبيل فاروق

" نهير سالم " طبيبة شرعية وباحثه وعالمة متخصصة في عصر تطور فيه كل شيء .

ولأن التغيير هو سمة الحياة والعلم أصبح سلاح ذو حدين يستخدمه أصحاب النفوس الضعيفة في جرائمهم .

ولكن تبقى العزيمة وقوة الإرادة والإيمان والعلم لكشف هؤلاء الأشرار للإطاحة بهم .

فكان من الضروري أن يتواجد مثلها لتكتشف بعينيها الفاحصتين وعلومها العصرية وحاستها العلمية الخاصة كل لمحة من ذلك المسرح الكبير .

مسرح الحيـــاة ....

مسرح الجريمة ....

- أقرأ التفاصيل المثيرة واكتشف ذلك الغموض .

رقم الإيداع
2007 \ 25072

الناشر
المؤسسة العربية للإبداع
15 ناصر الثورة - الهرم
(+202) 35843711 - 0122722288